الرسم بالكلمات

بقلم

علاء أبو شحاتة

مبادرة قلم وحرف

الطبعة الأولى

الكتاب: الرسم بالكلمات

المؤلف: علاء أبو شحاتة

تصميم وإخراج: هناء أمين

رقم الإيداع:٢٠٢٢/١٠٥٤٧

الترقيم الدولي: 978-977-6968- 45-5

مدير عام المبادرة: شعبان منير

المدير التنفيذي: هناء أمين

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الإهداء

ويبقى دائماً جيشُ المرء عائلته،

ولحمه ودمه وملاذه

وحماه ومأمنه

أبي حفظك الله ورعاك وأطال في عمرك، وبارك فيك، وختم لك بالأعمال الصالحات.

أخي وأختي، بقايا أمي رحمها الله.

شبيه روحي وشريكة دربي وحياتي..

إليكم أهدي هذا الكتاب.

علاء

إرادة (لا)

قيل عن إرادة ال (لا). تعلم أن تقول "لا".
ليست "لا" لمجرد اللاء، إنما من أجل أن تكون صادقاً في شعورك، عواطفك، خلجات نفسك.
الحياء خير كله، والحياء حياة، فلا تقتل عواطفك ولا تؤذ مشاعرك بسيف الحياء.
لو قلنا: (لا) في وقتها الذي كان ينبغي!
لو تمسكنا بكلمة (لا) وما تستوجبه من أفعال تحميها وتنزلها منازلَ القوة وحيز التنفيذ، وفرضها على المتطاولين والمتربصين بنا لاستباحة كرامتنا وسرقة المزيد من الحقوق المكتسبة وكسرنا بسيف الحياء!
الحياءُ كله خيرٌ إجمالاً، لكن حينما يتم استغلاله لكسرنا واستباحتنا، فلا يأتي وقتها بخير.
فكما أنّ ربنا قال في كتابه العزيز: "إن بعضَ الظن إثمٌ" فهذا لا يعني أن كلَ الظن إثم، وهكذا الحياء إن حرمك من حقك في الإرادة والاختيار وأن تلوذَ بكلمة (لا) لتحصنَ نفسك من الطامعين ولصوص الحقوق وناهبي العمر والبراءة وسلامك مع نفسك ومع العالم من حولك.

قل (لا) لمن جعلكَ تسألُ نفسك، "هل أنا بهذا السوء؟"
قل (لا) لكل من حاول أن يفقدك الثقة في نفسك، وحاول أن يجعلَ منك شخصًا مهزوزًا لا يستطيعُ اتخاذ قرارٍ واحدٍ في حياته، كلما خطوتَ في طريقٍ جديدٍ تسألُ نفسك: "هل سأصِلُ إلى غايتي؟ هل بإمكاني فعلُ هذا؟"

قل (لا) وإياك أن تلتفتَ وراءك، فمن لم يمد إليك يده في عثراتك لا يستحقُ أن يصافحك وقتَ الوصولِ والصعودِ إلى منصاتِ التتويج والانتصار.

قل (لا) وإياك أن تعاودَ بسطَ يدك لمن شوّه ملامحك وجعلك مسخاً تتحاشى النظرَ إليه، مَن جعلك في نفق التبرير أو الإحساس بالنقص والتقصير.

قلها صريحةً وإياك أن تعود إلى طريقٍ معتمٍ أوشك أن يستهلك طاقتك ويفقدك هويتك.

فارق مَن لا يشبهك، وتمسك بمن ضمدك وأحيا مواتك ولملم شتاتك وفارق الجميع ليجمعك، ولا تفرط في (لا) ليكون هناك لـ (نعم) معنى وقوة وحياة.

مجاملةُ الأفاعي جريمةٌ

لا بطولة في مواجهةِ الكائناتِ السامةِ، بل الحكمة في الابتعاد، فلا تتردد في بتر كل ما هو سامٍ ومؤذٍ بحياتك، فمجاملة الأفاعي جريمة.

يحكي أحدُ الطيارين في معارك العرب مع الكيان الصهيونيّ، أنه كان لديه مهمةٌ حربيةٌ محددةٌ في عمق الأراضي التي يغتصبها العدو، وإذا به يتعرضُ في طريقه لمحاولاتٍ أرضيةٍ مستميتةٍ لإسقاطه، فما كان منه إلا أنه استغل كلَ خبراته في التمويه والمراوغة والصعود تارةً بطائرته، وتغيير مساراته تارةً أخرى، حتى نجح في الوصول إلى واجهته وتدمير الهدف بنجاح.

وحين سألوه عن سببِ عدمِ تعامله مع المضاداتِ الأرضيةِ للعدو قال: لو تعاملت مع كل هدفٍ جانبيٍّ يحاولُ تشتيتي أو إخراجي عن مساري فلن أصلَ إلى هدفي أو على الأقل لن أحققه كما كان ينبغي أن يكون. والدرسُ المستفادُ لا يخفى على كل ذي بصيرةٍ يحسنُ التأملَ ويمتلكُ شيئاً من الفراسةِ والإدراكِ، أن هناك فرقاً

شاسعاً بين التهور والشجاعةِ، بين نزق التسرع وحكمةِ الإقدام.

فالشجاعةُ محلها القلبُ، بينما الجرأةُ تهورٌ سببه اللامبالاة وعدم النظر في العاقبةِ والاندفاع بدون تفكيرٍ ولا حكمة، فالشجاع يعرفُ ويدركُ حجمَ الخطرِ الذي يواجهه ويقدمُ عليه، أما المتهورُ فهو غير واعٍ لما قد يترتب على أفعاله.

وبناءً عليه حين تحاولُ العلاقاتُ السامةُ النيلَ منك، سواءً بالتقليلِ منك أو إحداثِ ثقوبٍ من السلبية والخيبات في سفينة إبحارك نحو التفوق والنجاح، أو حين تستميتُ تلك الكائناتُ السامةُ كي ترفعَ أعلامَ الفشلِ الكئيبةِ على ساريةِ صروح نجاحاتك في الحياة، فاعلم أن تجنب تلك العلاقات السامة ليس ضعفاً ولا خوراً ولا صورةً من صورِ العجزِ والهروب.

كل ما عليك أن تستعينَ بالله ولا تعجز وأن تأخذ بكل أسباب النجاح، والتي منها الاستعانة على قضاء نجاحاتك بالسرية والكتمان مع تجنبِ المساراتِ السامةِ والتي لو وقعت أسيراً في أنفاقها المعتمةِ فربما تتأخرُ كثيراً عن الوصولِ إلى منصاتِ النجاح، بل وربما تنتهى حياتك دون النجاة منها أو الخلاص.

مطلقة المحاكم وشهوة الانتقام

بعد أن تجرجرك الناشزُ في أروقةِ المحاكمِ وتسرقُ منك أموالك وتسيطرُ على أبنائك وتشوه سمعتك أمام القاصي والداني، فلا تظنّ أنها قد اكتفت، ومن الغلِ والحقدِ قد ارتوت، رغم أنها مَن سعت للطلاق ورفعت بيديها لبِنات الفراق.

دعيني أهمس في أذنك أيتها الناشزُ ومَن على شاكلتك من مطلقات المحاكم...

لو حدث وأتممتِ جريمتك وسرقتي أموال المسكين الذي ظنك يوماً ما أقرب بني البشر إليه، وفي غفلةٍ من الدهرِ مكنك من رقبته حين وثق في عائلةٍ من اللصوصِ واللئامِ، فوقّع لهم بكامل إرادته على قائمةِ منقولاتٍ فغزل بيديه حبلَ مشنقةٍ وضعه في رقبه؛ ظناً منه أنه عقدٌ من وردٍ فواحٍ أو وشاحٍ يقيه بردَ السنين ويشفي آلام الجراح.

أيتها الناشزُ فلتعلمي - لا أبا لكِ - أن عوض الله جميلٌ، وهناك ربٌ يسمع ويرى.

يقول سبحانه في الحديث القدسي: "يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا".

فلا تعتقدين يا أمة الله أنه سيظل أسيرك بعد أن أعتقه الله من أصفادك وأخرجه من نفقك المظلم، ورغم مرارةِ التجربة وسواد الليل البهيم، فسوادُ ليلك يعقبه فجرٌ ساطعٌ، ونفقك المعتمُ في نهايته يتجلى النهارُ من جديدٍ.

أما أنت أيها المسكين فلا يخدعنك سوادُ قلبها، ويستمر سحرها ليوهمك أنّ كلَ بنات حواءَ على شاكلتها، فهناك نساءٌ رباها الرجالُ فخرجت من بيتٍ علّمها كيف تصون الزوجَ وتكون له الملاذ والسكنَ والسكينة والأمانَ.

المرأةُ ليست بما تملكه من جمالٍ زائلٍ أو شهاداتٍ فارغةٍ كصاحبتها أو ما وصلت إليه من درجاتٍ علميةٍ أو وظيفةٍ مرموقةٍ، وهي في الوقت ذاته جاهلةٌ جهولةٌ دثارها الجهلُ والعندُ والانتقامُ.

المرأةُ التي مدحها النبي ﷺ لم يمتدح فيها ما تتشدقُ به نواشزُ العصرِ الحديثِ بل قال في حقها: "خَيْرُ النِّساءِ الَّتِي تَسُرُّهُ إذا نَظَرَ وَتُطِيعُهُ إذا أمَرَ وَلا تُخالِفُهُ فِي نَفْسِها وَلا مالِها بما يَكْرَهُ"

السر يكمنُ في الاحترامِ والتقديرِ، في الطاعةِ والرضا والسترِ والمودةِ والرحمةِ والأمانِ.

أما أنت أيتها الناشزُ فنصيحتي إليكِ: بعدما انحاز إليك قاضي الأرضِ، جهزي لقاضي السماءِ قولاً وجواباً، حين يسألك: يا أمَتِي بأي حق استحللتِ مالَ مَن كان لك سنداً وستراً وسكناً وحياةً؟ كيف سولت لك نفسكُ الآثمةُ تشويه سمعته بالباطل؟ وكنتِ بينه وبين أولاده العتمة والحائل، فحرمتيه من فلذةِ كبده وعمدتِ إلى كسره وقهره.

ثم ماذا أنتِ فاعلةٌ في دعوةٍ رُفعت لربِ السماءِ في جوفِ ليلٍ، وصارت حساباً مؤجلاً وديناً مستحقاً، فكانت عنواناً بارزاً على كتابك: اللهم إن كان غفرانُ مظلمتي سبباً في دخولها جنتك ما غفرت لها، وعند الله تجتمعُ الخصومُ.

التأقلمُ بدايةُ التنازلات

أتذكرُ في سني عملي الأولى بحقلِ التدريسِ حيثُ الخبرةُ منعدمةٌ أو تكادُ في التعامل مع أصنافِ زملاءِ العملِ وتنوعِ مشاربهم وجذورهم، أتذكرُ كيف حدث الخلافُ المعتادُ في بدايةِ كلِ عامٍ دراسيّ؟ والصراعاتِ المحتدمة والحربَ الضروسَ حول توزيع جداولِ الحصصِ والمناهجِ التي يدرّسها كلُ معلمٍ، والصراعاتِ الخفية المتعلقةِ بمافيا الدروسِ الخصوصيةِ.

أتذكر كيف كانت المناقشاتُ تحتد لدرجةِ التراشقِ بالألفاظِ؟ وكيف كان يقوم المعلمُ الأولُ للمادةِ والمسؤولُ عن توزيعِ الغنائمَ بمحاولةِ احتواءِ تلك الصراعاتِ وترضيةِ أطرافِ الصراعِ؟ وبما أن لكلِ علاقةٍ أدواراً تتنوعُ ما بين الذئابِ والحملان، فللأسف وقتها كنتُ ضمن فئة الحملان! وأتذكر كيف كان لا يحسب لي مُقسمُ الكعكةِ أي اعتبارٍ، وكل ما علىّ فعله أن أنتظر الفُتات الذي يتساقطُ من المعركةِ المحتدمةِ بين الأسودِ والضباعِ والكلابِ والعقبان.

مرت التجربة وقد تأملتُ وتعلمتُ، وحين جاء الموسم التالي من مواسم الصيد وتوزيع الفرائس طالبتُ بالعدالة

في التوزيع، فإذا بهم على قلبِ ذئبٍ واحدٍ ينظرون لي شذراً وكأني انتزعت قلوبهم من صدورهم أو خلعت أبوابَ ديارهم، فكيف لي أن أتحدث؟ وكيف أتطفل على موائد القوم؟ وحين تمسكت بحقي اكفهرت الوجوهُ الكالحةُ وتسارعت أوراقُ الخريفِ المستترِ خلفَ بساتين الربيع الوهميةِ بالتساقطِ والرحيل.

موقفٌ آخرُ لا يختلفُ كثيراً عن الموقفِ السابق حين اغتربت عن وطني واضطرتني الظروفُ أن أتشاركَ في السكن مع أحد المعلمين من جنسيةٍ عربيةٍ، وكيف تغاضيتُ في البدايةِ عن كونه مدخناً شرساً؟ ولا يصبرُ على عدمِ سماعِ جارةِ القمرِ!!! وحين اعترضتُ على المتواليةِ التي لا تنتهي من السجائر التي تشتعلُ أفواهها من أعقاب أخرى تم حرقها، أو حين اعترضت على قرآن فيروزَ الذي لا ينقطعُ عن المكانِ ليلَ نهارَ كان رده أشدَ برودةٍ من سيبيريا أو القطب الجنوبي فإذا به يتبجحُ قائلاً: أنت لم تعترض منذ البداية! وبناءً عليه فلا يحقُ لك التأففُ أو الاعتراضُ، ولستم في حاجة إلى توقع الحركة التالية على رقعة الشطرنج، فقد كان لزاماً عليّ أن أنسحبَ من المعركةِ الخاسرةِ والانتقالِ إلى

سكنٍ آخر بمفردي مع درسٍ بليغٍ في حتميةِ الاحتماءِ بجناب (لا) والتصميمِ عليها والتمسكِ بها.

الكارثةُ في رأيي حين تتحولُ الخدماتُ المقدمةُ لمثلِ هؤلاء من المنتمين للبشرِ فاقدي معالم الإنسانيةِ أنك تُستباح من قِبلهم رويداً رويداً حتى تصيرَ كلك بالنسبة لهم كلأً مباحاً قابلاً للانتهاك في كل وقت وحين، بل وتصيرُ تلك التنازلاتُ حقاً مكتسباً لهم وليس من حقك التأففُ أو الاعتراضُ فضلاً عن الثورةِ والانتفاض.

وخلاصةُ القولِ مَنْ جعل ظهره مطيةً لغيره فلا يبكينّ من قسوةِ السوطِ وجحيمِ الركلاتِ، فطريقُ الاستباحةِ والمهانةِ يبدأُ بخطوةٍ، ومن أحنى ظهره ولو مرةً فلا يلومَن مَنْ اعتلاه.

الطاقةُ المهدرةُ

قيل في معنى الحِكْمَة: إنها اسمٌ لإحكام وضع الشيءِ في موضعه، وهي فعلُ ما ينبغي على الوجهِ الذي ينبغي في الوقتِ الذي ينبغي.

وبناءً عليه فليس من الحكمةِ الإفراطُ في العطاءِ والذي يعلّمُ الناسَ استغلالك، وليس من الحكمةِ الإفراطُ في التسامح لأنه يُعلّمُ الناسَ التهاونَ في حقك، كما أنه ليس من الحكمةِ الإفراطُ في الطيبةِ لأنه يجعلك تعتادُ الانكسارَ، وأخيراً فإن الإفراطَ في الاهتمامِ بالآخرين يُعلّمهم الاتكالية واقتحامَ عوالكم الخاصة من بابِ الحقوق المكتسبةِ دون أدنى خجلٍ أو وازعٍ من ضمير.

يحكي أحدُ الآباءِ عن بعضٍ من تجاربه فيقول: في أحدِ المراتِ لاحظتُ أنّ ابني نسي أن يشحنَ هاتفه قبل نومه، فما كان مني غيرَ أنّي وضعته على الشاحن، وفي الصباح قابلني ابني بفيضٍ من الشكرِ والثناءِ وإشراقةٍ تعلو محياه لا تخطئها عينٌ، وفي الليلةِ التاليةِ لاحظتُ أنه نسي أن يضعَ هاتفه على الشاحن فكررتُ ما قمتُ به الليلة السابقة، وفي الصباح شكرني ابني لكنه جاء بوجه غيرَ الوجهِ الذي في الليةِ السابقةِ، وبحماسٍ باهتٍ

لا ينمُ عن ثناءٍ عميقٍ، وفي الليلةِ الثالثةِ عدتُ للبيتِ مرهقاً، فسارعتُ إلى النومِ ونسيتُ أن أضع هاتفَ ابني على الشاحن، وفي الصباحِ وجدته متعكرَ المزاج وقد نال منه الضيقُ الشديدُ بل وعاتبني على عدمِ قيامي بواجبي الذي اعتاده مني.

أما عن ابنتي فقد قمتُ بترتيب فراشها في الصباحِ عدةَ أيامٍ ، فما كان منها إلا أنها توقفت عن ترتيبه من تلقاء نفسها وصارت تنتظر مني القيام بما عودتها عليه.

تعوّد صديقي أن أتصلَ عليه كي أطمئنَ على أحواله، ولما انشغلت عنه في أحدِ الأيامِ لظروفٍ ألمّت بي وجدته في أوجِ غضبه يصبُّ جام حممه ولهيبَ عتباه على خطأي الذي اقترفته في حقه وتجاوزي الذي لا يليق.

أما عن زميلي الذي كنت أستوعبه في أوقات غضبه وثوراته الحادةِ، فقد صار من الطبيعي أن يثورَ، بل ويتجاوزَ معي حدودَ اللياقةِ ومعاييرَ الأدبِ وانتقاءِ الكلمات.

صديقٌ آخرٌ يحكي تجربته المرةَ فيقولُ: ورثتُ مع إخواني عقاراً كنا نقتسمُ إيجاره الشهريّ، ولأنه كان في بحبوحةٍ من أمره ويسارٍ في ماله، فقد ترك لهم نصيبه

عن طيبِ خاطرٍ منه، وحين تعرضَ لضائقةٍ ماليةٍ طالبهم بنصيبه فما كان منهم إلا أن حاصروه بنظراتِ اللومِ والعتاب والاستغرابِ ' فكيف يتجرأ ويطالب بحقه ويسلبهم حقوقهم المكتسبة؟ مما اضطره إلى أن يستجديهم بكشف ستره وضيق حاله.

القصصُ متنوعةٌ والنتائجُ واحدةٌ، فكلُ مَن يجعل من نفسه كلأ مستباحاً سينقلبُ معروفه ذماً عليه ويندم كما قال زهير بن أبي سلمى:

وَمَنْ يَجْعَلِ المَعْرُوفَ فِي غَيْرِ أَهْلِهِ

يَكُنْ حَمْدُهُ ذَماً عَلَيْهِ وَيَنْدَمِ

وجملةُ القولِ إنّ أيَ مجهودٍ أو عطاءٍ مبذولٍ في غيرِ محله لن يعودَ عليك بما تتوقعه من مردودٍ أو امتنانٍ أو ثناء

وكلُ شعورٍ أو عاطفةٍ أو حبٍ فياضٍ يضلُ طريقه، سينقلبُ عليك نقمةً وجحيماً لا يطاق.

فالتضحيةُ في غير محلها سفهٌ وحماقةٌ وطاقةٌ مهدرةٌ، والإفراطُ في المشاعرِ كمن أفرط في وضع مكعباتِ السكرِ لتحليةِ كأسٍ من الشاي، فإذا به يستحيلُ من مسببٍ للبهجة واعتدالِ المزاج إلى عقابٍ ولومٍ وتكدير.

الرهان الخاسر و نَدَامَةُ الْكُسَعِيِّ

يُعتبر مثلُ "أندم من الكسعي" واحدًا من الأمثال الشعبية العربية التي تضرب وتُقال في مواقف الندم والتأسي على ما فات.

ويعد الفرزدق من أشهر الشعراء الذين استشهدوا بهذا المثل حين قال بعدما طلق امرأته نوار:

نَدِمْتُ نَدَامَةَ الْكُسَعِيِّ لَمَّا

غَدَتْ مِنِّي مُطَلَّقَةً نَوَارُ

وَكَانَتْ جَنَّتِي فَخَرَجْتُ مِنْهَا

كَآدَمَ حِينَ لَجَّ بِهَا الضِّرَارُ

وَكُنْتُ كَفَاقِئِ عَيْنَيْهِ عَمْدًا

فَأَصْبَحَ مَا يُضِيءُ لَهُ النَّهَارُ

فهو يعبرُ عن ندمه حين فرّط في جنته الأرضيةِ وطلّق امرأته نوار، واستجاب لوساوس شياطين الإنس والجن فكان كمن اختار العتمة على النور وفقأ عينيه، وحين أحس مرارةَ الظلمةِ أراد العودةَ ولات وحين مندم. ولعل من أشدِ صور الندم قسوةً حين تراهن على شخصٍ بعينه

وتحارب الدنيا بأسرها من أجله ولا تأبه لنصح ناصحٍ أو صوتِ عقلٍ منير، والأسوأ من ذلك حين تسعى بكل ما أوتيت من قوةٍ لتثبت للجميع أن اختيارك هو الأفضل وأنك على الدرب القويم.

والكارثة حينما يخذلك من راهنت عليه ووضعت كلَ البيض في سلته، فتراك قد وقعت أسيراً لدائرة خوفك وتتهرب من الاعتراف أمام نفسك بخطئك وسوء تقديرك فضلا عن استخدام كل الحيل النفسية والمبررات السفسطائية كي لا يظهرَ فشلُ اختيارك أمام الآخرين وتجنباً لنظرات الشماتة والسخرية.

ومن النماذج التي توردك موارد الخسارة وتؤول بك إلى عاقبةِ الندم والخذلان ذلك الصنفُ من الناس الذي يضمن وجودك في حياته وكأنك له أبٌ أو أمٌّ.

صنفٌ حين الأخذ فهو أول الصف، وحين العطاء تكون أنت آخر من يفكر فيه، وحين يجرحك بكلمةٍ أو فعلٍ فهو على ثقة تامةٍ أنك سترضى لا محالة حين يَمن عليك ليرضيك ويطيب خاطرك، فأنت في نظره من رابع المستحيلات أن تغضب منه مهما كانت التجاوزات، وإذا اختبرتَ قيمتك لديه بالاختفاء والبعد، فلن ينزعج أبداً لأنك لديه مضمونٌ، وكل ما يحتاجه هو أن يضغط على

زر استدعائك وكأنك الجنيّ في مصباح علاء الدين القديم، وعدم خروجك من محبسك لتلبية رغباته خيانة وتقصير ليس له سبيل للعفو والغفران.

مثل تلك العلاقات المشوهة كحملٍ خارج الرحم، فهو بكل حال من الأحوال لا يمكنه أن يستمر وإن عاندنا كي يبقى استحال إلى نزيفٍ داخليّ وخطرٍ داهمٍ على الحياة. فإن وجدت نفسك متورطاً في مثل تلك العلاقات السامة والتي تكسر قلوبكم وتستبيح سياج كرامتكم وتحيل ربيعكم خريفاً تتساقطُ فيه معالمُ البهجةِ وتسقطُ راياتُ الانتصارِ فسارع بالفرار كهارب من السباع.

فليس كلُ سقوطٍ نهايةٌ، وليس كلُ مفارقةٍ دليلَ هزيمةٍ أو انهيار.

كيف تجرؤ؟

كيف تجرؤ يا فاقدَ معالمَ الإنسانيةِ والرحمةِ ومعاني الشفقةِ والحنان؟

كيف سولت لك نفسك أيها القاسي عديمَ الرحمةِ أن تقفَ حاجزاً منيعاً بين الطلابِ المساكين والغش في الاختباراتِ؟

ثم ما مبرراتك السخيفةِ كي تحولَ بين هؤلاء الضعفاءِ وبين ارتقاءِ سُلمِ المجدِ والنجاحِ المبين؟

ألم تتوجع لتوسلِ الأمهاتِ ودموعِ حائراتٍ تصرخُ هل من مزيدٍ؟! ألا تخشَ دعواتٍ ليس بينها وبين ربِ السماءِ حاجبٌ أو أبوابٌ مغاليق؟

وماذا عن توسلاتِ طويلبٍ صغيرٍ يتمسحُ عتباتك كي يستمطرَ بعضاًمن الشفقةِ والعطفِ والرحماتِ؟

دعني أُجِبْ عما يجولُ بخاطرك أيها القاسي عديمَ الإحساس.

هل تعلم أنك بفعلتك الشنعاء هذه قد وقفت سداً منيعاً بين قطارٍ طويلٍ من المرضى وبين موتهم الحتميّ حين

منعتَ طالباً متسلقاً كنباتِ الهالوكِ ليصبحَ طبيبَ موتٍ منتظرٍ!

ألا تدركُ أيها المتورطُ في بحورِ الظلمِ أنك تساهمُ في حمايةِ الأمةِ من انهيارِ المباني والمرافقِ والسدودِ حين منعتَ مشروعَ مهندسٍ مرتشٍ ذي قدراتٍ محدودةٍ في الفهمِ والقدرةِ على الابتكارِ وحلِ المشكلاتِ؟

وماذا عن محامٍ عديمِ الشرفِ لا يعي مفهومَ الأمانةِ وشرفَ الكلمةِ وشرفَ المهنةِ وشرفَ الإنسانِ؟ ألا ترى أنك قتلت مواهبه الفذةَ في الانتصارِ للظالمِ والتهامِ فرائسه الضعافِ ؟ ألا تعلم أيها المعتدي أنك تخالفُ السننَ الكونيةَ وقانونَ الغابِ القائمَ على بقاءِ الأقوى وهلاكِ الضعفاءِ؟!

ألا تراك أقمت عليه الحجة بحديثِ رسولِ اللهِ ﷺ: "انصر أخاك ظالمًا أو مظلومًا، فقال رجلٌ: يا رسولَ اللهِ، أنصره إذا كان مظلومًا، أفرأيت إذا كان ظالمًا كيف أنصره؟ قال: تحجزه أو تمنعه من الظلم فإن ذلك نصره" - رواه البخاري.

ألا ترى أنك وقفتَ حجرَ عثرٍ في نهرٍ آسنٍ من الرشوةِ التي تصنع مجتمعاً فاسداً ينخرُ في عظامِ الأمةِ بأكملها

وكأنك ما سمعت يوماً عن قول رسول اللِه ﷺ لعن رسول الله ﷺ الراشي والمرتشي - رواه أبو داود والترمذي.

كيف تكونُ سبباً في بعثِ أمةٍ من مواتها وتكون سبباً في تكاثرِ نماذجَ مشرقةٍ كقدوةٍ حسنةٍ تأخذ بأيدِ الناس من الضلالاتِ وتغولِ الماديةِ وانتشارِ الرذائلِ والفحش وردهم إلى الطريق المستقيم؟

ألا تعلم أنك حين تتمسك بتلك المبادئ التي لا تروقُ لسكانِ السفوحِ والمستنقعاتِ اللأخلاقية فأنت تحرمهم من مسؤولٍ فاسدٍ يئدُ الهممَ ويدفنُ القدراتِ ويبددُ الإبداعَ ويقتل كلَ أملٍ أو حلمٍ في غدٍ نظيفٍ؟ وماذا عن الكائنِ الوصوليّ الذي يحولُ بين كل مجتهدٍ وبين عتباتِ النجاح ومنصاتِ الاستحقاق؟

للأسف أيها المعلمُ صاحبُ المبادئ أنت تمثل غصةً ملعونةً في حلقِ لصوصِ الوطنِ، ومعولَ هدمٍ لشهواتهم الفاسدةِ، فهل يحقُ لك أن تكونَ لبنةَ بناءٍ وتربةً صالحةً لبناء حيوات صالحة لبني قومك وشركائك في الإنسانية ومشاعل الخير والجمال؟

يا صاحبَ الصُّبرةِ قد أصابنا من البللِ ما أفسد علينا حياتنا فهلا جعلت عوارنا أمام أعيننا كي نُقّومَ طريقنا ومن غينا نستفيق؟ فمن غشنا فليس منا وأن اللهَ لا يصلحُ عملَ المفسدين.

أيها المعلمُ يا وريثَ الأنبياءِ يا من يصلي عليك اللهُ وملائكته وأهلُ السمواتِ والأرضِ حتى النملة في جحرها وحتى الحوتَ فلتعلم أن قضية الفاسدين ليست مع الصالحين بل مع كلِ مصلحٍ غايته صلاحَ الأمةِ واجتثاثِ الفسادِ ومنابتِ الفاسدين، فإما أن تصمدَ في خندقك متمسكاً بمشاعلِ النورِ والتي شئتَ أم أبيت تنالُ يداك من نيرانها أو ليهنأ سفهاءُ القومِ بإفسادهم، وعلى الدنيا السلام.

ما بين دائرةِ الأسرِ وسفينِ النجاةِ

لن يفهمك إلا اثنان، أحدهما مر بحالتك والآخر يحبك جداً.

ولن يستبيحك وينتهك حرماتك حتى الرمقَ الأخيرَ إلا من أحسن قراءتك حينما أمنته على سرك ومنحنه نياطَ قلبك حباًوثقةً وتضحيةً، وظننته ملاذاً وحصناً منعياً ووطناً لا يخون.

أما عمّن مر بحالتك فسيكونُ أكثرَ الناسِ شعوراً بمأساتك وتقديراً لردودِ أفعالك، وفهماً لما آلت إليه حالتك النفسية وما نالها من خرابٍ ودمارٍ وحطامٍ.

وأما الذي يحبك جداً فهو ليس في حاجةٍ لتقعَ في فخِ التبريرِ أو التفسيرِ وسردِ أدلةِ البراءةِ ونفيِ الاتهامِ .

وكم تكونُ محظوظاً لو رزقك اللهُ مَن يجتمع فيه الأمران، شخصٌ نادرُ الوجودِ، والذي إذا تعثرت في حديثك احتضنك بابتسامته الحانيةِ والتي تعنى وصولَ رسالتك وتم استيعابها كما ينبغي أن يكون.

شخصٌ إذا أخطأت سارع لتأمينِ سقوطك من حافةِ الخطأِ اللعينِ بوسائلِ السلامةِ والنجاةِ هامساً في قلبك

قبل أذنك محتضنك بعينيه قبل ذراعيه: لا تبرر ولا تعتذر، فأنا أعلمُ مقصدك وأفهمك أكثرَ مما تفهم أنت نفسك الحيرى في عالمٍ لا يحسنُ إلا سوء الظنّ والتخوين.

وماذا عن الصنفِ الثاني؟

كائنٌ امتلأت حُشاشة قلبه استغلالا وطمعاً وجشعاً وأنانيةً، كعالمِ الأرقامِ ليس له نهايةٌ أو حدٌ ترتوي عنده أو تكتفي، كائنٌ يُحسنُ قراءتك لا ليحتويك وإنما ليمعنَ في استغلالك والانتفاعِ من وراءك كلَ الانتفاع ، في الوقتِ الذي فشلتَ أنت في قراءته وتفسيره، فتقع أسيراً في دائرته المتداخلةِ، فتراك تتردى في هاويةِ التبريرِ وإرضائه بكلِ ما أوتيت من قوةٍ، فهو يعرفُ تماماً كيف يسلبك إرادتك حين يسحرك بتعاويذ التقصيرِ في حقه، فإذا بك ترى نفسك هذا الوحشَ الأسطوريّ الذي حطّم ضحيته التي لا تجفُ دموعها ليلَ نهارَ.

شخصٌ يجيدُ محاصرتك في زاويةِ التشكيكِ والريبةِ، يكذبُ ويكذبُ ثم يكذبُ حتى يُخيّلُ إليك من سحرهِ أنها حقائقُ ومسلماتٌ تسعى، دائمُ السخريةِ منك، يبالغُ في ردودِ أفعاله ويعتمدُ اللومَ سلاحاً فتاكاً للهجومِ عليك والنيلِ منك، يشعركُ على طولِ المدى بالذنبِ والخيانةِ،

يعتمدُ عليك في تلبيةِ رغباته وشهواته، والتي يوهمك أنها واجبٌ عليك لا مناصَ من تحقيقها فوراً وبدون ترددٍ أو سؤالٍ.

فإن كنتَ قد وقعتَ أسيراً للصنفِ الثاني الذي أجهدك وانتهك حماك، فسارع إلى التحرر مهما كانت الخسائرُ والصعوباتُ، وثق على قدرِ ثباتك يكونُ العوضُ من ربِ السماواتِ والأرض الذي يسمعُ ويرى، فإذا بك من بعدِ طولِ معاناةٍ وعذابٍ يلوحُ فجرك في الأفق وتشرقُ شمسك من جديدٍ، تلك الشمس التي مرت بحالتك وصدقت في حبكِ أشدَ الصدق حيثُ ملاذك ووطنك الذي لا يخونُ.

هل العتابُ سلوكٌ خاطئٌ يوجبُ أن نتخلى عنه؟

لننظرَ كيف تناول القرآنُ الكريمُ معاتبة الله لنبيه ﷺ

يستعملُ القرآنُ الكريمُ ألطفَ الألفاظِ وأرقها في معاتباتِ رسولِ اللهِ ﷺ والتي وردت في أربعةِ مواضعَ من كتابِ اللهِّ، في سورِ "التحريم وعبس والكهف والأحزاب"، فعلى سبيلِ المثالِ في سورة "عبس" يقول تعالى: (عَبَسَ وَتَوَلَّى * أَنْ جَاءَهُ الأَعْمَى * وَمَا يُدْرِيكَ لَعَلَّهُ يَزَّكَّى * أَوْ يَذَّكَّرُ فَتَنْفَعَهُ الذِّكْرَى) (عبس ١: ٤)

في عتابه ﷺ بشأنِ حادثةِ عبدِ اللِه بنِ أمِّ مكتومٍ، جاء العتابُ في سياقِ الغيبةِ لتخفيفِ وطأةِ المعاتبةِ على نفسه، كما أنّ في توجيه العتابِ المباشرِ مواجهة تجريحٍ وإزالةً لحاجبِ التقديرِ والتكريمِ، والتدرجِ من الغيبةِ إلى الخطابِ تهيئةً للنفسِ لاستقبالِ الموقفِ ولإيهامِ أنّ مَن صدر عنه ذلك غيره لأنه لا يصدر عنه، وانطلاقاً مما سبق نستطيعُ أن نبني عليه أن العتابَ من علامةِ المحبةِ، وحين أعاتبك فهذا لأنّ لك في قلبي مكانةٌ خاصةٌ ومقامٌ وقامةٌ أحرص دائماً على الحفاظ عليها وعدم التفريط فيها.

يقول الروائي الروسي ليوتولستوي:

"إذا فُقدت الرغبةُ في عتابِ من تحبُ فاعلم أنك قد شيعت حبه إلى مثواه الأخير"

وبناءً عليه فعندما تخلو العلاقةُ من بعض العتابِ واللومِ فاعلم أنها ودٌ ناقصٌ ومعيبٌ، وبناءً عليه فما علاماتُ العتابِ الدالِ على المحبةِ وغيره الدالِ على المهانة والتقليل؟

العتابُ واللومُ الإيجابيُّ محبةٌ وخوفٌ وحرصٌ بالغٌ على حمايةِ حبلِ المودةِ والوصالِ من عواملِ الهدمِ والفراق، أما عن العتابِ السلبيِّ فهو محمولٌ على أكفٍ من الأنانيةِ، وفسادِ الطويةِ، والتقليلِ، ومحاصرةِ الطرف الآخرِ في خاناتِ العجزِ والنقصِ والتبريرِ، عتابٌ صاحبه دائم الشكِ في شريكه، غيرُ واثقٍ من نفسه ولا من الطرفِ الآخرِ، تعوّدَ على الأخذِ، أما عن عطائه فقليلٌ شحيحٌ، شريكٌ متسلطٌ يرغبُ دوماً في السيطرةِ وتملكِ الآخرين.

وماذا عن المحبين؟

من المستحيلِ أن يتعمدَ أحدهما في عتابه التقليلَ من الآخرِ أو السعي للسيطرةِ أو الاستحواذِ، بل من بابِ

الخوفِ والغيرةِ المفرطةِ؛ لشدةِ التعلق وصدق المحبةِ والودِ ومتانةِ الميثاق الغليظِ.

بل تجدُ المحبَّ يحملُ بين يديه مبرراتِ العتابِ وكأنّه القاضي ومحامي الدفاع ومنفذ الأحكامِ.

ومن أجمل ما قيل في ذلك قول المتنبي وهو يعاتب سيف الدولة الحمداني عتاب رقة ومحبة وتمسك بحبال الوصال.

يا أعـدَلَ الناسِ إلا فـــي مُعامَلَتي

فيكَ الخِصامُ وَأنتَ الخَصمُ وَالحَكَمُ

فالبيتُ يختلطُ فيه مدحٌ واضحٌ وذمٌ وعتابٌ على استحياء، فمدحه بأنّه أعدلُ الناسِ، ولكنّ الذمَ والعتابَ هو أن هذا العدلَ لا يشملُ الشاعرَ.

وجملةُ القولِ فإنّه من الأفضلِ أن نستبدلَ العتابَ الذي يهلكَ المعاتِبَ والمعاتَبَ بلينِ السؤالِ ودفءِ الحوارِ الهادئ، ننسفَ العباراتِ الخبريةِ القطعيةِ بعباراتٍ استفهاميةٍ، تمنحُ المُعَاتبَ الفرصة للعودةِ والمحافظةِ على جسورِ الودِ والإخاءِ.

متلازمة الأبواب المُواربة والطاقات المهدرة

كثيراً ما تجدُ نفسك أسيراً لأصفادِ وقيودِ متلازمةِ الأبوابِ المواربةِ، **والتي من علامتها:**

النفسُ القَلِقةُ، والهواجسُ المميتةُ، وأضغاثُ أحلامٍ تبددُ كلَّ حلمٍ جميلٍ، وتئدُ في روحك معاني الرضا والتصالحِ مع نفسك وسلامها الداخليّ.

وماذا عن المشاعر؟

تحاوطك مشاعرٌ سلبيةٌ كالخوفِ، وفقدانُ الثقةِ بالنفسِ والتفكيرُ الزائدُ عن حدّه، والتي تؤثرُ جميعها عليك وعلى قراراتك بشكلٍ سلبيّ مميتٍ.

أبوابٌ سيئةُ السمعةِ لا تستطيعُ فتحها ولا تملكُ من القدرةِ والشجاعةِ الكافيةِ ما يجعلك توصدها وتحكمُ غلقها .. عيونك زائغةٌ وقراراتك مترددةٌ، تسترقُ إليها النظراتُ ويتفلتُ من قلبك انخفاضاً وعلواً وقعُ النبضاتِ، في انتظارِ شيءٍ ما تحدثك به نفسك الحائرةَ، كهمزةِ بين بين التي لم تستطع أن تتخذَ موقعاً مميزاً بين أحرفِ الأبجديةِ، وإذا بك تنتظرُ دوماً وقعَ خطواتٍ مراوغةٍ تأبى القدومَ، تتلهفُ يداً ما تدفعُ أبوابك المواربة لتشبعَ عطشك الذي لا يرتوي، وفراغاتك التي لا تكتملُ.

وهكذا تستمرُ بك رحلةُ البين بين في منطقةٍ رماديةٍ معالمها ضبابيةٌ، حيث دائرة مُحكَمةٌ من الخذلان، والأسوأ من ذلك أن تتسعَ بك قائمةُ الانتظار، فتشمل كائناتٍ لا فائدةَ منهم ولا يرجى منهم خير، "كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ ٱلظَّمْـَٔانُ مَآءً حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَهُۥ لَمْ يَجِدْهُ شَيْـًٔا"، "أَوْ كَظُلُمَٰتٍ فِى بَحْرٍ لُّجِّىٍّ يَغْشَىٰهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِۦ سَحَابٌ ۚ ظُلُمَٰتٌۢ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَآ أَخْرَجَ يَدَهُۥ لَمْ يَكَدْ يَرَىٰهَا "

الأبوابُ الموارِبةُ كمرضٍ عضالٍ ألم بصاحبه، فلا هو حيٌ فيرجى ولا ميت فيُنعى، علاقةٌ سامةٌ تجعلك تتعلق بحبالٍ مهترئةٍ وأملٍ خدّاع.

وخلاصةُ القول: الأبوابُ الموارِبةُ أكثرُ فتكاً بك حتى من الأبوابِ المفتوحةِ، فاحسم أمرك وكن سيدَ قرارك، وأغلق كلَ بابٍ مواربٍ يسبّبُ لك إزعاجاً لا ينتهي،وثِقْ أنّ مَن أراد هجرك رأى منْ ثقبِ البابِ مخرجاً ومَن أراد وصالك صنعَ من الجدرانِ مدخلاً، فطريقٌ واضحةُ المعالمِ وإن طالت بك خيرٌ ألفَ ألفَ مرةٍ من طرقٍ متشعبةٍ كتيهِ بني إسرائيلَ، يفنى فيها عمرك دونَ أن تحققَ أهدافك ولا تصل إلى مبتغاك، كالمُنْبَتَّ لا أرضاً قطع، ولا ظهرا أبقى.

كن نفسك

مَن وقع أسيراً في فخِ المقارناتِ لن يرتقي أبدًا سلمَ الرضا، ومن لم يرتقِ سلم الرضا فأنى له أن يذوقَ لذةَ الفرحةِ ونعمة السعادةِ والسرور؟!

ولكي ترتقي هذا المرتقى الصعبَ فعليك أن تحوزَ كثيراً من الخصالِ التي تعينك وتثبّتُ أقدامك كالجبالِ، وتذكّر قولَ رسولِ الله ﷺ "إنّما العلمُ بالتعلّمِ، والحلمُ بالتحلّمِ، ومَن يتحرّ الخيرَ يُعطه، ومَن يتقِ الشرَ يُوقه" كن أنتَ فلا تنتظرْ رضا ولا استحسانَ الآخرين، كن أنتَ ولا تخشَ نقدَهم أو رفضَهم، فمَنِ الْتَمَسَ رِضَى اللَّهِ بِسَخَطِ النَّاسِ، رَضِيَ الله عَنْهُ، وَأَرْضَى النَّاسَ عَنْهُ، وَمَنِ الْتَمَسَ رِضَا النَّاسِ بِسَخَطِ اللَّهِ، سَخَطَ اللَّهُ عَلَيْهِ، وَأَسْخَطَ عليه الناس.

كن أنتَ ولا تكن صورةً رديئةً أو انعكاساً باهتاً للآخرين وإياك وفخَ المقارناتِ، فالمقلدُ شخصيةٌ هشةٌ تشكو دائماً من النقصِ وعدمِ الثقةِ بذاتها، ولا يمكن أن تحققَ ذاتها وإن أتقنت شيئاً يسيراً فهي كالقِرَدةِ التي استولت على إحدى السياراتِ فأحسنت العبثَ بمحتوياتها ولم تستطعْ فنَ القيادةِ وتسييرِ الأمورِ.

يقولُ الكاتبُ الإنجليزيُّ ويليم شكسبير: كن لنفسك أولاً، كن أنتَ الغنيَ والمستغني.

وإياك أن تقهرَ مخلوقا لتسعدَ، ولا تظلم نفسًا لتبرر خطاياك، وابنْ سعادتك بعيدًا عما يؤذي الآخرين.

يقولُ عليّ بن أبي طالبٍ رضي الله عنه:

لا تظلمنّ إذا ما كنتَ مقتدراً فالظلمُ ترجع عقباه إلى الندمِ

تنام عيناك والمظلوم منتبهٌ يدعو عليك وعين الله لم تنمِ

وماذا عن بقية الخصال التي تعينك على سلامك النفسي وراحتك؟

يقولُ رسولُ اللَّه ﷺ: "لا تَحاسدُوا، وَلا تناجشُوا، وَلا تَباغَضُوا، وَلا تَدابرُوا، وَلا يبِعْ بعْضُكُمْ عَلَى بيْعِ بعْضٍ، وكُونُوا عِبادَ اللَّه إخْوانًا، المُسْلِمُ أخُو الْمُسْلِمِ: لا يَظْلِمُه، وَلا يَحْقِرُهُ، وَلا يَخْذُلُهُ، التَّقْوَى هَاهُنا ويُشِيرُ إِلَى صَدْرِهِ ثَلاثَ مرَّاتٍ، بِحسْبِ امرئٍ مِنَ الشَّرِّ أنْ يَحْقِر أخاهُ المُسْلِمَ، كُلّ الْمُسْلِمِ عَلَى الْمُسْلِمِ حرامٌ: دمُهُ، ومالُهُ، وعِرْضُهُ " - رواه مسلم.

فإذا أعتقت رقبتك من عبوديةِ الحسدِ والتباغض والتعالي والتكبرِ على الآخرين وتدثرت بدثارِ القناعةِ والرضا بعطاءِ اللهِ مع الأخذِ بالأسبابِ المشروعةِ في

تحقيقِ طموحاتك التي لا تنازع الناسَ في حقوقهم وعطاءاتِ اللهِ لهم حققت وقتها معاني الإنسانيةِ دونَ ماديةٍ فجةٍ ولا إنسانيةٍ أفلاطونيةٍ مستغرقةٍ في الخيالاتِ والأوهام.

جاء في حديثِ سهلِ بن سعدٍ الساعدي قال: "جاء رجلٌ إلى النبيّ ﷺ، فقال: يا رسولَ اللهِ، دلني على عملٍ إذا عملته أحبني الله، وأحبني الناس، فقال: "ازهد في الدنيا يحبك الله، وازهد فيما عند النّاسِ يحبك النّاسُ" - رواه ابنُ ماجه.

فإن استطعتَ أن تتخففَ من الناسِ حُزتَ راحة البالِ وسلامةِ العرضِ والشرفِ من الناسِ وكلامهم، وكن كالشجرةِ يرميها الناسُ بالحجارةِ وترميهم بأطيبِ الثمارِ، تلقاهم بسلامك وعطرهم بجميلِ كلامك، كن أنتَ السبّاقَ للعطاءِ، فاليدُ العليا خيرٌ من اليدِ السفلى، وإياكَ إياكَ أن تكونَ أنتَ السائلَ، استغن عمّن شئتَ تكن نظيره، وأحسن إلى من شئت تكن أميره، ولا تحتجْ إلى أحدٍ فتكن أسيره.

ومجملُ القول: كن نفسك قبل أن تنسى من تكون.

عفواً أنا لا أُعَوّض

هناك فرقُ شاسعٌ بين الكبرِ والثقةِ في النفس، بين التعالي على الآخرين ووضع حدودٍ حاسمةٍ بين ما يجوزُ لهم وما لا يجوز.

حُكي عن الشافعيّ رحمه اللهُ: "تَكَبَّر على المتكبّر مرتين "وهذا بمثابةِ معاقبته بمثلِ صنيعه وليس الكبرُ حينئذ كبراً بل سمي تكبّراً من المشاكلة فحسب.

قال بعضهم: التكبّرُ على المتكبّرِ صدقةٌ؛ لأنّه إذا تواضعتَ له تمادى في ضلاله وإذا تكبرتَ عليه تنبّه.

وبناءً عليه يمكنني بكل أريحيةٍ أن أرفعَ شعار: "عفواً أنا لا أُعَوْض "في وجهِ كل مَن يحاولٌ استباحة كرامتي والنيلَ من صروح عزتي واعتزازي بنفسي.

وكما جاء في المثلِ العربيِّ: "إنَّهُ نَسِيجُ وَحْدِهِ"، فأنا في قناعاتي ومستقرِ نفسي أحْوَديّ أعتزُ بنفسي وأعي قدرها.

وبناءً عليه فأنا لا أُعَوّض، ومْن فضّل خيارَ الابتعادِ عني فقد انحازَ إلى معسكرِ الخسارةِ متدثراً بلباس الندمِ والخذلان .

يقولُ تأبطَ شراً:

لَتَقرَعَنَّ عَلَيّ السِّنّ مِـن نَدَمٍ
إذا تَذَكّرتَ يَوماً بَعضَ أخلاقِي

احترامي لذاتي وتقديرها والإصرارُ على أن توضعَ الموضعَ الذي بها يليقُ، ليس غروراً ولا تكبراً بقدرِ ما هو ثقةٌ تامةٌ في الحبِ والخيرِ وصدقِ المشاعرِ التي تملأ جنباتي وحنايا قلبي.

لستُ من متعددي الوجوهِ ولا حاملي حقائبِ الأقنعةِ المتلونةِ، ولستُ في حاجةٍ إلى لعبِ دورِ الحرابيّ لنيلِ عطفٍ باردٍ أو منصبٍ زائلٍ أو شعورٍ كُتب عليه الموت قبل أن يرى نور الحياة.

لستُ ممن يجيدون فنَ المشي على حبالِ الخداعِ والزيفِ والتضليلِ، لستُ ممن ينصبون فخاخَ الخيانةِ والتدليسِ للإيقاعِ بالطيبين بذريعةِ الصداقةِ أو الزمالةِ أو حتى الميثاقِ الغليظ.

لم أكن يوماً من ضمنِ قوافِلِ الحاقدين والحاسدين الذين يطمعون فيما إيدي غيرهم، بل أتمنى لغيري السعادةِ وتحقيقِ طموحه عبرَ الدروبِ الشرعيةِ، فعطاءُ اللهِ يسعُ الجميعَ، فلا حيلة في الرزقِ ولا شفاعة في الموتِ، ولا

راحة في الدنيا ولا سلامة من ألسنةِ الناس وما أصابك لم يكن ليخطئك، وما أخطاك لم يكن ليصيبك.

لستُ ممن يستشرفُ ما في يديك وفي الوقتِ ذاته فمِن تمامِ حقي أن تحترمني وتضعني في قدري الذي يجب مثلما أحترمك وأقدرك.

فإن أدركتَ تلك العلاقة والتزمت شروطها فعلى الرحبِ والسعةِ، وإن كانت الأخرى فإليك عني فلستُ منك ولستَ مني، وعفواً فأنا لا أُعَوَّض.

الرسمُ بالكلماتِ

تنفسْ بعمقٍ ولا تتسرع في إصدارِ أحكامك عليّ مِن خلالِ كتاباتي، ظاناً بي أنها تعبرُ عنّي، وانعكاس لحياتي الشخصية، فأنا كاتبٌ محترفٌ أجيدُ الرسمَ بالكلماتِ بالألوانِ كافةِ، ساخنها وبادرها، مبهجها وقاتمها.

بل وتجدني أُلوّن كلماتي بأنواعٍ مختلفةٍ من الألوانِ، فتارةً أستخدمُ الألوانَ المائية التي تذوبُ فيها الكلماتُ من فرطِ عذوبتها ورقتها، وتارةً أستخدمُ الألوانَ الزيتية والتي تعتمدٌ على قلمِ الفحمِ الذي يتناسبُ مع سوادِ قلوبِ بعضِ بني البشرِ وسوءِ طويتهم وألسنتهم الحدادِ، وفي بعض الأوقاتِ تعجبني ألوانَ الباستيلِ حين يستدعى الأمرُ شيئاًمن الهدوءِ وتلوينِ مساحاتٍ واسعةٍ من الكلمات.

أحياناً ألجأ للكتابةِ بألوانِ الزجاجِ، فهي لامعةٌ وقويةٌ لتفضحَ المخادعين ساكني السفوحِ والمناطِقِ الرماديةِ، كما أنها تجفُ بالهواء بعيدًا عن الغبارِ، غبارِ الكذبِ والتدليسِ وإيذاءِ مشاعرِ الطيبينِ.

كما أنّها تتمتعُ بدرجةٍ عاليةٍ من مقاومةِ الشمسِ أو الضوءِ بشكلٍ عامٍ، وبالتالي فهي لا تبهتُ، وتقاومُ سحرَ

الكلماتِ الخداعةِ وتكشفُ زيفَ السفلةِ الذين يستحلون القلوبَ والعقولَ بمعسولِ كلماتهم رغمَ أنّ ألوانهم مغشوشةٌ لا تقدرُ على مقاومةِ نورِ الحقيقةِ وشموسِ الصدقِ المشرقاتِ.

تتنوعُ فرشاتي فتراني أرسمُ أشعارًا عن جراحاتِ البعدِ والفراق، ثمّ ما تلبثُ أن تقرأ لي كلماتٍ ذات رقةٍ بالغةٍ وجمالٍ ودلالٍ في العشقِ والحبِ؛ فإذا بك تتشعبُ بك الظنونُ وتتلاعبُ بك عواصفُ الشكِ ونيرانُ التوقعاتِ، هل حقاً هو يعاني من آلامِ الفراقِ وأوجاعِ البعادِ؟ أم أنَّه يعيش قصة حب عصفت بمشاعره وأحاسيسه؟!

هوّن على نفسك، فكلماتي ليست بالضرورةِ انعكاساً لحياتي وإن كنتُ لا أنكرُ أهمية التجربةِ الذاتيةِ في عمقِ العملِ الفنيّ وصدقه.

فالكتابةُ الاحترافيةُ لها أدواتٌ متنوعةٌ من أهمها عينُ الكاتبِ الناقدةُ والمتأملةُ والتي تتمخضُ عن كتاباته التي تحللُ وتناقشُ وتعالجُ قضايا مجتمعه خاصةً والإنسانيةً بصفةٍ عامة، فلا تُضَيّقْ واسعاً ولا تُحَجّر غضاًطرياً ليناً واستمتع بالتجربة، وخذ منها ما ينفعك، وتجاهل ما لا يروقُ لك، اجنِ العسلَ ولا تكسر الخلية.

نفسك نفسك فلا تبعها

- ١ -

لا تبالغ في التّطوُّع فيُفرَضُ عليك، وإياك أن تكونَ متاحاً طوالَ الوقتِ؛ لأنك بذلك قد جعلتَ من نفسك سلعةً مجانيةً، والأشياءُ المجانيةُ لا يُقدّر الناسُ قيمتها، وإن كانت الهواءَ الذي يتنفسونه والماءَ الذي يشربونه.
مبالغتك في العطاءِ عواقبها وخيمةٌ ومآلها انكسارُ قلبك وتحطمُ خاطرك، فلا تجعل سقفَ طموحاتك وثقتك في البشرِ عالياً فتتفاجأ بسقوطك المدويّ الذي لا يُبقى ولا يذر.
لو نزلنا بالمقدمةِ السابقةِ على أرضِ الواقع وطبقناها على العلاقاتِ بين الرجل والمرأةِ، كنموذجٍ للعلاقاتِ الإنسانيةِ، لوجدنا أنّ من الرجالِ مَن يحبُ الشخصية الحازمة المتجبرةَ التي تُعطي بحسابٍ وتتحدثُ بحسابٍ، حتى إذا أعطت كان قليلها فيضاً وشحيحها عطاءَ مَن لا يخشى الفقرَ.
وماذا عن تلك اللطيفةِ التي تراعي الجميعَ؟ بكل أسفٍ يُستباحُ حماها وتُنتهك كرامتها.

عندما تمنحُ الآخرَ أكثر مما يستحقُ يتحولُ تفضلك وجُودُك واجباً مستحقاً لا يقبلُ المناقشةُ أو الانتقاصُ، وإذا بك تصيرُ أسيراً لدائرةِ التبرير وأصفادِ السجان.

***

-٢-

تحكي إحدى الفتياتِ - التي تربّت في أسرةٍ عريقةٍ على التلطفِ مع الجميع ومراعاتهم حدَ الإفراطِ - أنّها عندما قررت أن تدعو خطيبها إلى طعامٍ أعدته بيديها، وكيف بالغت في إعدادِ أصنافٍ لا حصرَ لها من المُقبّلات والأطباق الشهيةِ، وقد تحقّق مرادها، فقد انبهر خطيبها بما أعدته وشكرها شكراً بليغاً على كرمها واهتمامها.

في المرةِ التاليةِ انتظرت أن يدعوها إلى تناولِ الطعامَ معه في أحدِ المطاعمِ الشهيرةِ كما وعدها رداً على دعوتها السابقةِ ولكنّه بدلاً من ذلك طالبها بدعوته مجدداًعلى تلك المائدةِ العامرةِ.

***

-٣-

في ركنٍ بعيدٍ على ضوءِ الشموع في أحِد المطاعمِ الفاخرةِ جلس خطيبها وقد قام بحجزِ طاولةٍ لشخصين

اثنين تعبيراًعن امتنانه بفعلِ خطيبته ورداً على كرمها المبالغ فيه.

ولكن ما الذي جعله يكلفُ نفسه كلَ هذه التكاليفِ ويدعو خطيبته إلى مطعمٍ لا يجرؤ على تخطي عتباته إلا عِلْية القومِ وكبراؤهم؟

لأنّه وعدها أن يردَ لها دعوتها السابقة حين أبهرته بمائدةٍ عامرةٍ بعبوتين من عبواتِ رقائق البطاطس المقرمشةِ، وكأسيّ عصيرٍ تناولها بنهمٍ شديدٍ وثناءٍ أشدَ وهو يشاهدُ الفيلمَ الذي دعته لمشاهدته بإحدى دورِ السينما الشعبيةِ.

بعد عدةِ أشهرٍ عاودت الكَرَّةَ ودعته إلى مائدةٍ احتوت طبقين من المعكرونة وعِدّةِ قطعٍ من الدجاجِ المتبّلةِ لا تتخطى عددها أصابعَ اليدِ الواحدةِ، فطار بها فرحاً وشكرها على اهتمامها المبالغ فيه والذي يدلُ على حبها العميقِ عمقَ المحيطاتِ واتساعَ البحورِ.

فكيف يكافئها على هذا الجهدِ الكبيرِ والبذلِ الخرافيّ الذي يَنمُّ عن كرمٍ وحفاوةٍ واهتمامٍ؟ حتى صار يُحدّثُ نفسه عن مكانته الرفيعةِ لديها والتي تستوجبُ عطاءً بلا حدودٍ، فلعله ينجحُ في ردِ شيءٍ من سخائها وكرمها المهولِ.

-٤-

لماذا لم يكن الجزاءُ من جنسِ العمل؟ لماذا صُدمت الفتاةُ اللطيفةُ التي اعتادت جبرَ خواطرِ الجميع، في حين كان الثناءُ على الفتاةِ الصارمةِ غايةً في المبالغةِ والانبهار؟ مع الأسفِ الإفراطُ في القربِ والعطاءِ والمبالغةِ في الاهتمام يبدو للآخرين نقصاً ورغبةً مُلحّةً في سترِ عيوبِ ما، مما يترتبُ عليه انتظارُ المزيدِ والمزيدِ من تقديمِ قرابين الطاعةِ رغمَ أنك صرت في نظرهم نقصاً مهما بالغ في عطائه فلن يبلغَ حدَ الكمال.

الرغبةُ المبالغُ فيها في إرضاءِ الآخرين، يرونها علامة إفراطٍ لتعويضِ العيوبِ وسترِ النقائص، فطبيعةُ الخلائقِ اعتادت ألا تُقدّر المتاحَ ولا تضع اعتباراً لما نالته بسهولةٍ وبدون مرارةِ السعي وصعوبةِ الوصول، ومع الوقتِ يتحولُ المتاحُ حقاً مكتسباً لا يستوجبُ شكراً بل ويستجلبُ الثورةَ العارمة والغضبَ وقتَ الحرمان.

الفتاةُ اللطيفةُ المعطاءةُ قدّمت في المرةِ الأولى أقصى ما يمكنها تقديمه، فصار من الطبيعي أن تواصلَ على المستوى نفسه، بل وصار من الواجبِ عليها أن ترفعَ سقفَ العطاءاتِ، أما الفتاةُ الأخرى فقد أحسنت التدرجَ

في عطائها فصار قليلها فتحاً عظيماً ومخاطبةٌ ودها حلمَ الأحلامِ.

وخلاصة القول: أنت في حاجةٍ مُلحةٍ لرفع سقفِ حبك لنفسك واحترامها وتقديرها، واحترامك لها حين تستغني عن العلاقاتِ السامةِ التي تؤذيك مهما كان قدرها وأهميتها، أنت في حاجةٍ شديدةٍ أن تضعَ نفسك موضعها التي تستحقه كي تفرضَ على الآخرين وضعك في الصورةِ التي بك تليقُ.

لا تحدثني عن الحبِ وعاملني به.

لا تحدثني عن الحبِ وعاملني به، فنحن لسنا في حاجةٍ مُلحةٍ في استعطافِ الآخرين ليفيضوا علينا ببعضٍ من عاطفةِ الحبِ والإعجابِ بقدرِ ما نحن في حاجةٍ قصوى لمن يجيدُ قراءتنا ويحسنُ التعاملَ معنا، يجيدُ فهمنا كما نحن بدون متواليةِ سوءِ الفهمِ التي لا تنتهي والتي طالما تغلّفت بسيلٍ من الأحكامِ الباطلةِ والتخوين.

وصلنا لمحطةٍ من محطاتِ سفرنا تستوجبُ طرازاً خاصاً ممن يستطيعُ احتواءَ ضعفنا واستيعابَ قلقنا وخوفنا من الليالي والأيامِ، نوعيةٌ متصالحةٌ مع نفسها، قادرةٌ على تقبلنا رغم عيوبنا، لديهم من المقومات ما يجعلهم يلتمسون لنا الأعذارَ في حال خطئنا، والسعادةُ الصادقةُ وقتَ تفوقنا وارتقاءَ منصاتِ التتويج وحصدِ ثمراتِ النجاح.

مر قطارُ عمرنا على محطاتٍ شتى تحملُ لوحاتٍ خداعةٍ تدّعي الحبَ في المنشطِ وتتوارى في المَكرهِ وتعثرِ الأقدامِ، تلك اللوحاتُ التي تبرزُ وقتَ الجعجعةِ وتختفي وقتَ الطحينِ، لوحاتٌ تُخفي مساوئَ أصحابها، "أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا

جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا"، يجيدون الكرَ والفرَ والتلاعبَ بمعسولِ الكلماتِ، "يعطيك من طرفِ اللسانِ حلاوةً ويروغُ منك كما يروغُ الثعلبُ".

أيها السادةُ: نحن في حاجةٍ شديدةٍ إلى ارتقاءِ سُلمِ إنسانيتنا، علينا أن نتخلصَ من العنصريةِ البغضاء والتعالي والتكبرِ على الآخرين.. "فلا فَضْلَ لِعَرَبِيٍّ عَلَى أعْجَمِيٍّ وَلا لِعَجَمِيٍّ عَلَى عَرَبِيٍّ وَلا لأحْمَرَ عَلَى أسْوَدَ وَلا أسْوَدَ عَلَى أحْمَرَ إلا بِالتَّقْوَى"

نحن في حاجةٍ إلى أشخاصٍ أسوياءَ برتبةِ "إنسان" دثارهم الرحمةُ ونهجهم التقديرُ والاحتواءُ والاحترامُ، نحن لم نعد في حاجةٍ إلى نسخٍ متطابقةٍ منا في ظاهرها توهمنا أننا بخيرٍ، فإن تعثرت بنا حياتنا في عتمةِ الليلِ البهيمِ انقلبت محبتهم المزيفةُ عداوةً وبغضاءَ.

نحن في أمسِ الحاجةِ إلى أرواحٍ نقيةٍ تُجمّلُ لنا العالمَ في أعيننا دون زيفٍ أو تضليلٍ، وتأخذُ بأيدينا نحو مشاعلَ النّورِ وترشدنا حيثُ منابعَ الخيرِ والجمالِ.

فن استخدام علاماتِ الترقيم.

لماذا تصرُ على وضع "فاصلة" في جملةٍ تستوجبُ أن تضعَ في نهايتها "نقطة" إيذاناً بنهاية السطرِ لكلماتٍ معتمةٍ كأنّها غرابيبُ سودُ؟!

لماذا تُجامّلُ في علاقاتٍ واهية قد انقطعت عنها أسبابُ الحياةِ وحان نزع أنابيب الأكسجين عنها لأنها ماتت إكلينكياً منذُ أمدٍ بعيدٍ؟

عندما تجدك محاصراً بين حسنِ ظنك وثقتك اللامتناهية بمن تحبُ، وبين محاصرته لك بسيلٍ من الشكوكِ والاتهاماتِ والمغالطاتِ الواهيةِ ونيرانِ الريبةِ وسوءِ الظنونِ، فلا تتمادى في كسرِ قوام نفسك واستباحة كرامتك، وضعُ علامةِ الترقيمِ المناسبةِ، فقد انتهى بينكما السطرُ المريبُ.

سارع بالانسحابِ التكتيكيّ بكلِ هدوءٍ، واعلم أنّ لكل انسحابٍ خسائرُ حتميةٌ لا شكَ في ذلك، ولكن الكَيّسَ الفطنَ مَن يُقدّر الأمورَ بقدرها ويضعها في نصابها الصحيح، فلئن تخسر بعضاً من أموالك أو متاع الدنيا الزائلِ خيرٌ لك من أن يُستباحَ حماك وتُنتهكُ كرامتك.

ولا تقبل على نفسك، مهما كانت الأسبابُ والمبرراتُ، أن يتمَ سجنك في دائرةِ جلدِ ذاتك وتشويهِ معالمك والنيلِ من صرحك الأشمِّ وكيانكِ القويم.

يقول تعالى: "لَقَدْ خَلَقْنَا ٱلإِنسَٰنَ فِىٓ أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ"

فمن يحبك يتقبلك بمرك قبل حلوك، وعيوبك قبل مزاياك.

وإياك إياك أن تتحولَ إلى عبدٍ ومسخٍ مشوهٍ يجلدُ ذاته بذاته، وتنسحقُ في وادٍ معتمٍ من التبريرِ والتفسيرِ محاولاً إثباتِ صدقِ نواياك وحسنِ طويتك؛ لأنك بكلِ بساطةِ إن وصلتَ لهذ العمقِ من الظلماتِ - التي لا تكادُ أن ترى لك فيها يداً تأخذُ بك إلى ركنٍ شديدٍ ولا تنصتُ بحكمةٍ لصوتِ عقلٍ رشيدٍ أو يهديك لمعالمَ النجاةِ قلبٌ شهيدٌ - فاعلم أن نجاتك قد صارت دربًا من دروبِ المستحيلِ وتذكّر الأثرَ القائلَ: "أحبب حبيبك هوناً ما، عسى أن يكونَ بغيضك يوماً ما، وابغض بغيضك هوناً ما، عسى أن يكونَ حبيبك يوماً ما"، فلا ثمة تناقض بين الحرص وحسن الظن ولا خير في المبالغة والإفراط في المشاعر والعلاقات.

الابتزازُ النفسيُّ

علاماتُ الابتزازِ النفسيّ والتلاعبِ بمشاعرنا واستباحةِ حرماتنا.

إثارةُ الإحساسِ بالذنبِ فينا حتى نقعَ أسرى لهم، فإذا بنا نبررُ ونبررُ ونجدُ أنفسنا عبيداً لهم في نهايةِ الأمرِ ننفذُ كلَ رغباتهم ثم نعتذرُ عن التقصيرِ الوهميِّ الذي خلقوه في كلِ ما نقدمه لهم من أقوالٍ وأفعالٍ ضمن محاولتنا المستميتةِ لنيلِ رضاهم والهروبِ من سخطهم وجحيمِ اللومِ والعتابِ والاتهامِ بالتقصيرِ، الذي لا يتوقفُ قطاره في محطةٍ من محطاتِ الهدنةِ أو الرضا والامتنانِ، يعايرونا دوماً بأخطاءِ الماضي وكأنه كفرٌ لا يغتفر أو جريمةٌ لا تنمحي، أما هم فملائكةٌ معصومةٌ من الخطأِ والزلاتِ.

موهوبون جداً جداً في تحريفِ الحقائقِ، ومحاصرتنا بأخطاءٍ لم نقترفها، وطمسِ معالمِ الحقِ.

يتلذذون جداً باستغلالِ نقاطِ ضعفنا لكسرنا وقهرنا.

يتعمدون إهانتنا بألسنةٍ حدادٍ، فإذا اعترضنا وثُرنا دفاعاً عن كرامتنا أبدوا تعجبهم، فهم في زعمهم إما يمزحون أو أننا مفرطو الحساسيةِ وترصدِ الأخطاءِ.

مجملُ القولِ هم سارقو الفرحةِ، محترفون في إفسادِ حياتنا وتشويهِ روحنا.

ومجرد البعدِ عنهم شفاءٌ، وخروجهم من حياتنا انتصارٌ.

آدامُ وحواءُ

علاقةٌ كلِ يومٍ وكلِ ساعةٍ وكلِ وقتٍ وحينٍ.. علاقةٌ لو تفكرنا في أسبابها ومبرراتها وعواملَ نجاحها لعلمنا يقيناً أنّه من الممكن تكرارِ التجربةِ (الآدم حوائية) كأنجح ما يكونُ.

فرغم أنّ آدمَ عليه السلامُ خلقه اللهُ في الجنّةِ التي بها كلُّ صنوفِ النّعمِ والملذاتِ، وما لا يتخيله إنسانٌ ولا خطرَ على قلبِ بشرٍ، ورغمَ كلِ ذلك شعرَ آدمُ بالوحدة واستوحشَ وجوده وحده فكانت حواءُ.

يُقالُ كان آدمُ نائماً وحده في الجنةِ فأخذ اللهُ ضلعاً من أضلاعِ جانبه الأيسرِ وخلقَ من ذلك الضلعِ حواءَ في لحظةٍ، وجعلها امرأةً حيةً فيها كل الملامحُ الأنثويةُ، وجلست بجانبِ آدمَ، فلما استيقظ ورآها قال لها: من أنتِ؟ قالت له: أنا حواءُ، قال لها: وما معنى ذلك؟ قالت: أنا امرأتك، خلقني اللهُ من ضلعك، وجعلني لك، فتحسَّس آدمُ أضلاعه فوجدها ناقصةً، فحنَّ إلى حواءَ لأنّها جزءٌ منه.

وبعد ما عرفنا أن آدمَ، حتى الجنةِ شعر فيها بغربةٍ فخلق له ربنا حواءَ.

والسؤالُ هنا... لماذا خُلقت حواءُ من ضلعه؟

ربما لأن الضلعَ بشكله الأعوج هو أنسبُ شيءٍ لحمايةِ القلبِ والحفاظِ عليه، وهذه في معناه أنّ حواءَ هي منبعُ العاطفةِ ومصدرها وهي القادرةُ على احتضانِ آدامَ واحتوائه كما الضلوعُ تحمي القلبَ وتحيطُ به.

قيل لو تألم الرجلُ وهو في وعيه يكره، بعكسِ المرأةِ، فهي تحبُ في قمةِ ألمها وجراحها، لذا خُلقت حواءُ من آدمَ وهو نائمٌ لأنّه لو شعر بالآلامِ لكرهها ونفر من وجودها، بخلافِ الأنثى التي تشعرُ بألمِ المخاضِ والولادةِ الرهيبِ والذي يجعلها تحبُ وليدها وتضحى وتتحملُ من أجله كلَ أصنافِ العذابِ والآلام.

خُلقت حواءُ من ضلعٍ أعوجَ يحمي القلبَ لأنّ مهمتها حماية القلوبِ ونشرِ الحبِ والبهجةِ والعاطفةِ، أما الرجلُ فقصته مختلفةٌ تماماً، فقد خُلق من ترابٍ كي يحافظَ على البدنِ وما حوى، يحافظُ عليها ويحميها ويتعاملُ مع قسوةِ الحياة.

فكرةُ أنّها من ضلعه يعني أنّه لن يشعرَ باكتماله إلا بوجودها ورجوعها إلى المكانِ الذي خرجت منه كي تؤانسَ وحشته وتطردَ غربته وتعيدَ له روحه ومعاني الفرحةِ والحياة.

أضف إلى ما سبق أنها جزءٌ منه، من لحمهِ ودمهِ فهي ليست غريبةً عليه ولن يشعرَ معها بغربةٍ أو خوفٍ أو ألمٍ.

آدمُ وحواءُ ليست مجردَ علاقةٍ هدفها إنجابُ الذريةٍ وبقاءُ الجنسِ على قيدِ الحياةِ فقط؛ لأنّه بدون المعاني السابقةِ في أيةِ علاقةِ بين زوجين فلا شك أن حياتهما تتحولُ تدريجياً لغربةٍ وعذابٍ وآلام لا تطاق.

ويجمعُ كلَ ما سبق قولُ ربنا: "وَمِنْ آيَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُمْ مَوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ."

في فن بناء العلاقات

الأصلُ الشرعيُّ في الزواج أنّه على الاستحبابِ وليس على الوجوبِ.

وبناءً عليه إما أن تختار الشخصَ المناسبَ لك تماماً أو عِش عمرك لذاتك، وتمتّع بحياتك مع أهلك وأصدقائك، الحياةُ ليست مجردَ ارتباطٍ وزواجٍ وإنجابٍ ومسؤولياتٍ مترتبةٍ عليه.

الاختيارُ الخاطئُ يورّطُ صاحبه ويُدخله في نفقٍ مظلمٍ من الهمِّ والغمِّ والحَزَنِ، بل وربما الأشدّ من ذلك، وهو قهرُ الرجالِ الذي تَعوّذ منه رسولُ الله ﷺ، ثم ينتهي بك المطافُ إلى نفورٍ تامٍ من الحياةِ بما فيها ومن فيها.

وبناءً عليه وحتى يأتي الشخصُ المناسبُ والذي بالطبع ليس من علاماتِ قدومه (البحثُ أو الانتظارُ) - لأنهما يورثان التوترَ والقلقَ - حتى تحدث هذه اللحظةُ الفارقةُ فعليك أن تهتمَ بنجاحاتك وتؤسسَ لها ؛ نجاحاتٍ في عملك، شغفكِ، سعادتك وحياتك.

لا أحدَ ينكرُ، كائناً مَن كان، دورَ الشراكةِ الحياتيةِ، لكنّ تلك الشراكة لو لم تكن مع الشخص المناسبِ الذي

يتقبلك ويعرف قيمتك وتظلل علاقتكما معاني الاحترام والتقدير، فلا داعى لتلك الشراكةِ ولتذهب للجحيم.

الشراكةُ الحقيقةُ هي تلك التي أساسها الحبُ الذي لا يأتي غالباً إلا مرةً واحدةً في العمر، أما عن صورِ الحبِ الباهتةِ البائسةِ التي تسيرُ مشاعرها في مسارٍ واحدٍ كالطرق أحاديةِ الاتجاهِ -ذهابٌ بلا عودةَ - فهي صورٌ كريهةٌ كالحةٌ كالموتِ ورائحةِ القبور، لا تُغني ولا تسمن من جوعٍ بل العدمُ خيرٌ منها.

فمثلها كحالِ قومٍ سبأٍ "ذواتي أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَيْءٍ مِنْ سِدْرٍ قَلِيل "

وخطورةُ تلك المشاعرِ أحاديةِ الاتجاه أنّها تورثك الكدرَ والأرقَ وتأنيبَ الضمير، فأنتَ في نظرِ نفسك خائنٌ لها لا تقدرها ولا تحترمُ رغباتها وطموحاتها وتطلعاتها في العلاقاتِ السويةِ ،

وعليه فاختر اختياراً يناسبك تماماً أو عِشْ حياتك واستمتع بها - في حدودِ اللِه ومظلةِ شريعتهِ - بدون تلك الشراكةِ المحفوفةِ بكلِ أنواعِ المخاطرِ والمهلكاتِ.

يا غدار

لم يتم اختياري، كعادةِ آخرِ عامين، للمشاركةِ في تصحيح اختبارات أوراق الإجابةِ لمادتي اللغةِ العربيةِ والتربيةِ الإسلاميةِ للشهادةِ الإعداديةِ، وكنتُ وقتها حديثَ الزواج، فقلتُ لعلها فرصةٌ جيدةٌ ومن حسن حظِ صديقي الذي يسكنُ على أطرافِ المحافظةِ كي أنتهي من لصق أثاثِ زواجه بقشرةِ الخشبِ، وهذا العملُ يُعدُّ مرحلةً من عدةِ مراحلِ يمرُ بها الأثاثُ في أثناءِ تصنيعه، حيثُ تمرُ مراحلُ التصنيع على عدةِ متخصصين في مجالِ التصنيع، بدايةً بالنجارِ ومروراً بالقشرجي والأوميجي والأسترجي، ونهايةً بتركيبِ الزجاجِ والمرايا والمقابضِ المعدنيةِ وغيرها.

استمر عملي مدةَ ثمانيةِ أيامٍ كاملةٍ، حيثُ كان العملُ يبدأُ من السادسةِ صباحاً وينتهي عند منتصفِ الليلِ تقريباً. ثمانيةُ أيامٍ رأيت فيها كرماً وحسنَ ضيافةٍ من أصهارِ صديقي، كرماً يعبرُ عن نبلِ أصلٍ وصدقِ جودٍ.

وبينما كنتُ منهمكاً في عملي في أحدِ الأيامِ الثمانيةِ وجدت صديقي قد انتفخت أوداجه وانتفشت ذكوريته

وأصابه حالة من اللاوعي واللاشعور المؤقت والذي لم تُجدِ معه نداءاتي.

ولما أفاق من غيبوبته العجيبةِ كان لا بدَ أن يفسرَ لي الأمرُ برمته، فقص قصته الماتعة وقال: إنّه كان في بيتِ أهله منذُ عدةِ سنواتٍ عجافٍ، وقد استسلم لسلطانِ النومِ بغرفته عقبَ صلاةِ الجمعةِ، ولم يستيقظ إلا قريباً من غروبِ الشمس، فقام مندهشاً وذهب يتطلعُ إلى الشارع من بين فرغاتٍ صغيرةٍ في نافذته ليعرفَ في أي وقتٍ هو؟! فشد انتباهه صوتَ مسجلٍ عالٍ عند جيرانه يخرجُ منه صوتُ أغنيةٍ "يا غدار "لمغنيةٍ تونسيةٍ ترقصُ علي انغامها امرأةٌ في نهايةِ العقدِ الثالثِ من عمرها تزوجت من رجلٍ خمسينيّ تزوجها حديثاً بعد وفاةِ زوجته السابقةِ.

ومن وقتها صار يحدثُ له كما حدث في تجربةِ بافلوف، الذي علّم الكلبَ أن يربطَ بين ظهورِ الطعامِ وصوتِ الجرس، فنتج عنه رابطٌ عجيبٌ بين استثارةٍ غيرِ مشروطةٍ (الطعام) لاستثارةٍ مشروطةٍ (الجرس) وقد تعلّم الكلبُ خلالَ التجربةِ أن يسيلَ لعابه عند سماعِ صوتِ الجرس، أو لنقل أنّه صار لديه عقدةُ فؤادِ المهندس والعتبةِ جزاز و السلم نايلو فى نايلو.

ولكن بعد مرورِ ما يقربُ من خمسةِ عشرَ عاماً من تلك الواقعةِ هل ما زالت العقدُ مستمرةً أم أنّ لعابَ الكلبِ ما عاد يسيلُ لتعوده على قائمةِ الطعام؟

رقعةُ الشطرنج

الانتقالُ حكماً والحكمُ انتقالاً .. "محمدُ بنُ سلمانَ المصريُّ مثالاً".

في قوانينِ الأحجارِ على رقعةِ الشطرنجِ يعرفُ كلَ حجرٍ قدره ابتداءً وحجمه وحيزُ تحركه، فهناك البيادقُ التي لا تتحركُ إلا في حيزٍ مربعٍ واحدٍ في اتجاهٍ واحدٍ إلى الأمامِ، ولا تستطيعُ الرجوعُ إلى الخلفِ خلافاً لباقي القطعِ، وهناك الوزيرُ الذي يستطيعُ أن يتحركَ بأي اتجاهٍ مستقيماً أو عامودياً أو قطرياً، الأمرُ الذي يمنحه تحكماً كبيراً على الرقعةِ، وهناك الملكُ وهو القطعةُ الأهمُّ على رقعةِ الشطرنجِ حيثُ بأسره تنتهي اللعبةُ لصالحِ الآسرِ، لذا للحفاظِ على قوته يحرسه عددٌ لا نهائيّ من البيادقِ للتضحيةِ من أجله، وتراه يتموضعُ في بدايةِ اللعبةِ بالقربِ من الوزيرِ.

وهناك قاعدةُ الترقيةِ، والتي تنصُ على أن البيدقَ الذي يصلُ للصفِ الثامنِ يُستبدلُ بأيةِ قطعةٍ يختارها اللاعبُ، وهناك في قوانينِ التعليمِ يجوزُ تصعيدُ الطالبِ من مرحلةٍ لأخري بضوابطَ معينةٍ وبحكمٍ قضائيٍّ نافذٍ في تلك المسألةِ.

هذه المقدمةُ المملةُ ذكّرتني بحادثةٍ وقعت في عام ١٩٨٦ وأنا بالصف الأولِ الإعداديِّ والذي يصادفُ مولدَ محمدٍ بن سلمانَ أو عامه الأول بالحياة، والذي هو الآن ولياً للعهدِ أو قل: الوزيرُ على رقعةِ الشطرنج الذي له الصلاحيةُ الكاملةُ في التحركِ على الرقعةِ في كلِ اتجاهٍ وعلى كافةِ مساحاتِ الرقعةِ جميعها.

وبينما كنا في عامنا الأول في المرحلةِ الإعداديةِ تفاجأنا بناظرِ المدرسةِ يفتحُ علينا بابَ الحجرةِ الدراسيةِ وفي صحبته وليّ أمرٍ ومعه ابنه الذي تم إنزاله من الصف الثاني الإعداديّ ليلتحقَ بنا بعد مرورِ شهرٍ تقريباً من الدراسةِ بالصفِ الأولِ الإعداديّ.

تعجبنا من الواقعةِ الفريدةِ من نوعها والتي تتوه النفسُ عند سماعها، ولكن عند انكشافِ السببِ يتلاشى العجبُ. زميلنا النازلُ إلينا اسمه محمد سلمان!! أي واللهِ يا عبدَ الله اسمه محمدٌ سلمان، وإن شئت فقل: محمد بن سلمان المصري.

ومحمد بن سلمان هذا كان معه زميلٌ له في الصفِ الأولِ الإعداديّ يدعى محمد سليمان، ولعلك لاحظت التشابه في اسم الأبوين، وحدث أن نجح محمدُ سليمانُ ورسب محمدٌ سلمانُ في عدةِ موادٍ تستوجبُ له الخضوعُ

لاختباراتِ الدورِ الثاني، ولكن حدث خطأٌ ساذجٌ من القائمين على أعمالِ الاختباراتِ وأعلنوا نجاحَ محمدٍ بن سلمانَ ورسوبَ محمدٍ بنَ سليمانَ، فما كان من والدِ محمدٍ بن سليمانَ إلا أنه أشبع ابنه ضرباً، وقرر ألا يخوضُ ابنه اختباراتِ الدورِ الثاني، بل ويلحقه بأحد الأعمالِ الحرفيةِ والتي تشتهرُ بها محافظةٌ دمياط.

وبعد انتظامِ الدراسةِ بشهرٍ تم اكتشافُ الواقعةِ فما كان من إدارةِ المدرسةِ المبجلة إلا أنها أنزلت محمداً بن سلمانَ عاماً دراسياً، وخاطبت وليَّ أمرِ الطالبِ محمدٍ بن سليمانَ بأحقيةِ ابنه بمواصلة التعليمِ بالصفِ الثاني الإعداديّ إلا إن المفاجأة أن وليّ أمره رفض متعللاً بأنّ مستقبلَ ابنه أفضل في مجالِ الأعمالِ الحرفية.

وما بين جريمةِ الإدارةِ وخطأها الرهيبُ وبين جهلِ وليّ أمرِ محمدٍ بن سلمان الذي كان بإمكانه رفعُ قضيةٍ تضمن لابنه الاستمرارَ بالصفِ الثاني الإعداديّ لأن خطأ المدرسة فوّت على ابنه خوض اختبارات الدور الثاني وبين حماقةِ وليّ أمرِ محمدٍ بن سليمانَ الذي ضيّع مستقبلَ ابنه التعليميّ.

ذكرتني تلك الواقعةُ وسوءُ حظِ محمدٍ بن سلمانَ المصريّ بواقعةِ تنحيةِ محمدٍ بن نايفٍ وصعودَ نجمِ

محمدٍ بنِ سلمانَ السعوديّ، وكيف استطاع وهو صغيرٌ صِغرَ البيادقِ على رقعةِ الشطرنجِ في إزاحةِ الوزيرِ بمباركةِ الشاهِ المجمدِ على رقعته؛ والتحركِ بسلاسةٍ متناهيةٍ على كافةِ أركانِ رقعةِ الشطرنجِ في انتظارِ إزاحة الشاهِ المتهالكِ والإعلانِ الرسميّ عن انتهاءِ اللعبةِ كما يتمناها البيدقُ المتعملقُ؟ رغم أنه لا انتهاء للعبة ما دام هناك رقعةٌ وأحجارٌ.

حذاء أبي القاسم الطنبوري

تذكرني اللعنةُ التي حلّت بالمصريين العاملين بالخليج، من إنهاءٍ لخدماتِ الآلافِ منهم بكافةِ المؤسساتِ والقطاعاتِ الصحيةِ والتعليميةِ والدينيةِ والصناعيةِ كرد فعلّ طبيعيّ لقذارةِ الإعلام ومحرضيه، ومَن خلفهم من دويلاتِ الطوائفِ الخليجيةِ وأحزاب الحصار؛ تذكرني تلك اللعنة بلعنة حذاء أبي القاسم الطنبوريّ والتي وردت بكتبِ النوادر والحكاياتِ والتي نصها: يحكى قديماً أن رجلاً ببغداد اسمه أبو القاسم الطنبوريّ، والذي كان له مداسٌ صار له وهو يلبسه سبع سنين، وكان كلما تقطّع منه موضعٌ جعل مكانه رقعةً إلى أن صار إلى غاية الثقل، وصار الناسُ يضربون به المثل .

ثم إن أبا القاسمِ دخل الحمامَ ليغتسلَ، فقال له بعضُ أصدقائه: يا أبا القاسم أشتهي أن تغيّرَ مداسك، فإنه في غايةِ الشناعةِ، وأنت ذو مالٍ - من حمد الله -، فقال له أبو القاسم: الحقُ معك فالسمعُ والطاعةُ، ثم إنّه لما خرج من الحمامِ ولبس ثيابه رأى بجانبِ مداسه مداساً جديداً، فظنّ أن الرجلَ مِن كرمه اشتراه له، فلبسه ومضى إلى بيته، وكان ذلك المداسُ الجديدُ مداسَ القاضي حيثُ إنّه

جاء في ذلك اليومِ إلى الحمامِ ووضع مداسه هناك ودخل ليستحمَ، فلما خرج فتش على مداسه فلم يجده، فأرسل خدمه الي بيتِ الطنبوريّ فوجدوا مداسَ القاضي عنده، فأحضره القاضي وأخذ منه المداسَ وضربه تأديباً وحبسه مدة وغرّمه بعضَ المالِ وأطلقه.

خرج أبو القاسمِ من الحبسِ وأخذ مداسه وهو غضبانٌ عليه، ومضى إلى دجلة فألقاه فيها فغاص في الماء، فأتى أحد الصيادين ورمى شبكته فطلع فيها المداسُ، فلما رآه الصيادُ عرفه وقال: هذا مداسُ أبي القاسم الطنبوريّ، يبدو أنّه وقع منه في دجلة، فحمله وأتى به بيتُ أبي القاسمِ فلم يجده، فنظر فرأى طاقة نافذةٍ إلى صدرِ البيتِ فرماه منها إلى البيتِ فسقط على الرفِ الذي فيه بضاعةُ الرجلِ من الزجاج وماءِ الوردِ، فوقع الزجاجُ وتكسّر وتبدد ماءُ الوردِ، فجاء أبو القاسم ونظر ذلك، فعرف الأمر، فلطم على وجهه وصاح وبكى، وقال: وافقراه.. أفقرني هذا المداسُ الملعونُ، ثم إنّه قام ليحفر له في الليلِ حفرةً ليدفنه فيها ويرتاح منه، فسمع الجيرانُ حسَ الحفرِ فظنوا أن أحداً ينقّبُ عليهم، فرفعوا الأمرَ إلى الحاكمِ فأرسل إليه وأحضره واعتقله، وقال له: كيف تستحلُ أن تنقبَ على جيرانك حائطهم؟ وحبسه

ولم يطلقه حتى غرمَ بعضَ المال، ثم خرج من السجن ومضى وهو في قمةِ الغيظِ من المداس، وحمله إلى كنيفِ الخانِ ورماه فيه، فَسَدّ قصبة الكنيفِ ففاض وضجر الناسُ من الرائحةِ الكريهةِ، ففتشوا عن السبب فوجدوا مداساً فتأملوه، فإذا هو مداسُ أبي القاسمِ، فحملوه إلى الوالي وأخبروه بما وقع، فأحضر الوالي أبا القاسم ووبخه وحبسه، وقال له: عليك تصليحَ الكنيفِ، فغرم جملة مالٍ، وأخذ منه الوالي مقدارَ ما غرم تأديباً له وأطلقه.

خرج أبو القاسم والمداسُ معه وقال وهو مغتاظٌ منه: واللهِ ما عدت أفارق هذا المداسَ، ثم إنّه غسله وجعله على سطح بيته حتى يجف، فرآه كلب فظنه دميةً فحمله وعبر به إلى سطحٍ آخر فسقط من الكلب على رأس رجلٍ فألمه وجرحه جرحاً بليغاً، فنظروا وفتشوا لمن المداس فعرفوه أنه مداسُ أبي القاسمِ، فرفعوا الأمرَ إلى الحاكمِ فألزمه بالعوض والقيامِ بلوازم المجروح مدةَ مرضه، فنفد عند ذلك جميعُ ما كان له ولم يبق عنده شيء.

ثم إن أبا القاسم أخذ المداسَ ومضى به إلى القاضي وقال له: أريد من حضرةِ مولانا القاضي أن يكتبَ بيني

وبين هذا المداس مبارأةً شرعيةً على أنّه ليس مني وأنّي لستُ منه، وأن كلاً منّا بريءٌ من صاحبه، وأنّه مهما يفعله هذا المداسُ لا أُحاسب به أنا، وأخبره بجميع ما جرى عليه منه، فضحك القاضي منه ووصله ومضى.
والسؤال الذي يطرحُ نفسه ويدّسُ كاملَ أنفه، هل يمكننا الخلاصُ من لعنة انتسابنا لسوء حظنا برغم ما نالنا من جراحات وآلامٍ كما تخلص أبو القاسم الطنبوريّ من لعنة حذائه؟ أم ستظل تطاردنا اللعنةُ حتى مفارقتنا لتلكم الحياةِ؟!

صبّح علينا

لكل مرحلةٍ رجالها، ولكل مؤسسةٍ رئيسها الملهَمُ وزعيمها الذي لا يُضام، حتى الأسرةُ الصغيرةُ لها زعيمٌ يسوسها ويُنعمٌ عليها بعبقريته التي لم يخلقْ مثلها في البلادِ.

ومن ضمنِ هذه المؤسساتِ التي مرت على العبدِ الفقيرِ الى ربه الغني الكبيرِ المتعالِ كانت مدرستي في المرحلةِ الإعدادية في منتصفِ الثمانيناتِ من العقِد المنصرمِ حيثُ تبرعَ رجلٌ من رجالِ الخيرِ بقطعةِ أرضٍ كبيرةٍ لبناءِ مدرسةٍ إعداديةٍ في القريةِ التي نعيشُ بها والتي تفتقدُ لمثلها مما يترتبُ عليه معاناةٌ كبيرةٌ ومشاقةٌ جبارةٌ على أبنائها والذين يضطرون إلى المشي عدةَ كيلو مترات للوصولِ الى أقربَ مدرسةٍ إعداديةٍ وراء نهرِ النيلِ والذي يفصلُ بين قلبِ العاصمة وقريتنا الرشيدةِ.

تم بناءُ المدرسةِ بتبرعاتِ الشعبِ المكافحِ غيرَ أنّ التبرعاتِ لم تكن كافيةً بالقدرِ اللازمِ لبناءِ سورٍ يحمي أبنيةَ المدرسةِ - التي تم بناؤها في منطقةٍ زراعيةٍ خاليةٍ من أيةِ مظاهرِ للحياةِ البشرية - من غزواتِ الماعزِ

والغنمِ والبقرِ التي تبحثُ عن العشبِ والكلأِ في تلك المناطقِ الزراعيةِ حيثُ لم يكن من المستغربِ أن تجَد قطيعاً من الماعزِ يقتحمُ علينا الصفَ ونحن في حجرةِ الدراسةِ، كما أنّه من المعتادِ أن تسمعَ صوتاً جهورياً قاداً من بعيد يصدرُ عن فلاحٍ عتيقٍ يمتطي حماراً يحمل برسيماً يحثه على الإسراع بالمشي، ولا عجب أن ترى فناءَ المدرسةِ وقد تناثر فيه السمادُ الطبيعيُّ الذي يسرُ الناظرين.

فما كان من مديرِ المدرسةِ وقائدها الهمامِ إلا أن تفتقت ملكاته الفذةُ عن فكرةٍ جبارةٍ للتخلص من هذه المآسي وتلكم المنغصاتِ، فإذا به يمسكُ بمكبرِ الصوتِ في الإذاعةِ الصباحيةِ المدرسيةِ ويثيرُ فينا القومية المتناثرةَ في أعماقنا والوطنية الدفينة في ذواتنا، ويطالبنا أن نصّبحَ كلَ يومٍ على مدرستنا - التي هي رمزٌ للوطنِ الكبيرِ - بقالبٍ من الطوبِ كي نجمعَ قوالبَ الطوبِ اللازمةِ لبناءِ سورٍ للمدرسةِ، ومَن لا يحمل معه قالباً من الطوب كلَ صباحٍ فهو متخاذلٌ لا يحبُ وطنه الصغيرَ ولا يسعى إلى الخيرِ، ولم تتشربْ نفسه البئيسةُ بمعاني الوطنيةِ ونداءِ الزعيمِ المُلهَمِ .

ولك أن تتخيلَ يا عبد الله مقدارَ المساخرِ والمشاكلِ التي سببها هذا القرار القذافيّ الناصريّ العبقريّ العجيب.

فلكي يثبتَ أبناءُ شعبِ المدرسةِ ولاءهم ورجولتهم وقدرتهم على المساعدةِ، وتحملِ المسؤوليةِ، كانوا يسرقون قوالب الطوب - أو إن شئت يقتبسون - وهم في طريقهم الصباحيّ للمدرسةِ من أمام الأبنيةِ التي تحت الإنشاءِ أو ينزعونها نزعاً من جدرانِ أو أسوارِ المنازلِ التي يمرون عليها غدوةً ورواحاً، وعندما اشتكى المتضررون من الواقعةِ المتكررةِ وجاءوا لعتابِ المديرِ المُلهَمِ، أنكر الواقعة برمتها وقال: إن الطلاب أساءوا الفهمَ، ولا بد من توبيخ هؤلاء الأغبياءِ الذين يسيئون تفسيرَ عبقرياتِ الزعيمِ ودررهِ التي لم يأت بها الأوائلُ. ولا أدري هل هذه السماتُ العبقريةُ يتوارثها المصريون منذُ عهودِ الفراعنةِ البائدةِ؟ أم أنّه، كما وصف اللهُ سبحانه وتعالى في كتابه العزيز، حالَ فرعونَ وأتباعه المتفرعنين وتَبَعَهم من العبيدِ في قوله تعالى من سورة الزخرف:

"فَاسْتَخَفَّ قَوْمَهُ فَأَطَاعُوهُ إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا فَاسِقِينَ"

لِتْجِر فِسْكِك

تموجُ مصرُ ببحرٍ خضّمٍ من اللهجاتِ المتباينةِ حدَ التباين والاختلافِ، وكلُ صاحبِ لهجةٍ يناضلُ من أجل لهجته ويعتزُ بها كحالِ اللهجةِ القاهريةِ والسكندرية والصعيدية، وهناك مَن يتبرأُ من لهجته خاصةً جيلَ الألفيةِ التعيسَ كما الحال في بلدي الجميلةِ دمياطِ، بل وربما يخرجُ بعضهم ليبني مجداً شخصياً وشهرةً ساذجةً على حسابِ السخريةِ من لهجةِ بلده ووطنه الصغيرِ في برامج "التوك شو" التافهةِ.

ومن ضمنِ اللهجاتِ التي لا تخطئها أذنُ، لهجة محافظةِ الشرقيةِ والتي تختلف هي الأخرى من قريةٍ لقريةٍ في المحافظةِ نفسها.

ولعل أبرز الكلمات التي حصلت على براءة الاختراع في محافظةِ الشرقيةِ كلمة: (مش) حيث يقوم أهلُ الشرقية بإضافتها قبل كلامهم لنفي الكلام، فبدلاً من قولهم باللهجةِ الأشهر بمصر "ما نزلتش" يقولون "مش نزلت"، والترجمة للفصحى "ما نزلت".

ومن كلماتهم المميزة أيضاً: "الفرخة مش إلها رجلين" والمعنى: الفرخة ما لهاش رجلين، والترجمة الى اللغة الفصحى "الدجاجة بلا أرجل."

ومن المواقفَ التي لا تنسى والتي حدثت في إحدى المكتبات بشارع النصر بالدوحة عاصمة قطر، وكنا وقتها في فصل الشتاء، حدث أن تأخر أحدُ العاملين بالمكتبةِ عن الحضور في الميعاد الصباحيّ للعمل مما جعل صاحبَ المكتبةِ يستشيطُ غضباً، ولما حضر الرجل والذي يعود انتماؤه لمحافظةِ الشرقية المصرية وعليه علاماتُ الإرهاق ومظاهرُ المعاناةِ والبللُ باغته صاحب العمل مندفعاً فيه: إيش اللي أخرك؟

قال الرجل بعفوية شديدة: لنجر فسكك.

ولك أن تتخيل كم مر من الوقت الذي احتاجه صاحبُ العملِ ومن معه للتعرف إلى هيروغليفية هذه الكلمات. ولا أطيل عليك يا عبد الله، فقد نجحوا في تفسير اللغز الكبير واجتياز الحاجز العسير والذي انحلت عقدته المستحكمة ولياليه المدلهمة.

لنجر فسكك - أيها الأعاجم أمثالي - حروف متداخلة ومدغمة لجملة (لأجل النقر اللي في السكك)، فقد تأخر المغامر الشرقاويّ صباحاً عن عمله بسبب الحفر التي

أحدثها المطر في الشوارع والطرقات الجانبية، مما تسبب في تمهله ومشيه مشية الحلزون، خشية الانزلاق فيما لا يحمد عقباه، ولا أخفي عليك أخي المستمع أن صاحبَ العملِ من نشوة الوصول إلى أعالي الدرب المجهول، تجاوز عن خطأ الشرقاويّ المغوار حتى لا يتصف بسبب جهله بالعبارة الغامضة بأمارات البغل والحمار.

ومن الحبِ ما كفر

تختلفُ الأشخاصُ وتتباينُ، فلا تكادُ تجدُ شخصاً متطابقاً مع غيره إلا في الملامح العامةِ والصفاتِ المتشابهةِ على وجهِ التقريبِ.

ومن خلال تعاملي مع مديري المدارس التي عملت بها رأيتُ تشعباتٍ وتنوعاتٍ عجيبةً ما بين المديرِ الحاني طيبِ القلبِ الذي ضحّى بعمره في تربيةِ أشقائه، وضحّى بنفسه في سبيلِ إسعادهم، ثم انقبلوا عليه مستقبلاً كي يغنموا بما ورائه من مالٍ صامتٍ أو ناطق، وبين المديرِ قاسي الملامحِ أجش الصوتِ المنفلتةِ أعصابه على أتفه الأسبابِ، المنتفخةِ أوداجه لكلِ حدثٍ، والذي يحملُ في قلبه ملامحَ طفلٍ كبيرٍ وبين مديرٍ ثالثٍ يحمل جينات مَن تربوا في كنف ما بعد الانقلاب على المملكة المصرية وترعرعوا في تلك البيئة التي لا تخفى على أحد.

ومن المواقفِ التي لا أنساها والتي كان بطلها ذاك المدير قاسي الملامح أجش الصوت في إحدى المدارس النائيةِ التي عملتُ بها فترةً من عمري الوظيفيّ، فقد حدث أن ضمني هذا المدير الفاضلُ للجنة أعمال

الامتحانات بالمدرسة (الكنترول)، وفي خضّمِ فترةِ الاختبارات وما تحمله من ضغوطاتٍ عصبيةٍ مريرةٍ وتوترٍ يفوقُ الوصفَ نظراً لخطورة المسؤوليةِ، تم عمل إفطارٍ جماعيّ بالمدرسةِ، حيثُ كنا في نفحاتِ شهرِ رمضانَ المباركِ، كلمحة اجتماعية ودينية وإنسانية، ولتعزيز أواصرَ الأخوةِ والزمالةِ.

وأذكر أنه لما أوشكت الشمسُ على الغروب في رحلتها إلى ربها، تسربت من بينهم منطلقاً للمسجدِ لأداءِ صلاةِ المغربِ، وبدون شكٍ لم يشعروا بعدم وجودي وانخرطوا في التهامِ ما لذ وطاب من أصنافِ الطعامِ التي أبدعت في عملها معلماتُ تلك المؤسسة التعليمة. ولما عدتُ عقبَ الصلاةِ، وقد أوشكوا على الانتهاء من تناول طعامهم، وقد سبقهم مديرنا الهمام بالانتهاء من طعامه هو ووكيل المدرسة، واللذان سارعا نحو سباق حرق أكبر عددٍ ممكنٍ من السجائر، فقد كانا يدخنان حد الإدمان.

ولما دخلتُ عليهم نظرَ لي المديرُ نظرةً قاسيةً مريبةً وكأنه لم يرني من قبل، ثم اندفع كعادته بصوته الجهوريّ الجبار وكأنني طالبٌ فاشلٌ من طلابِ مدرسته الميمونة وسألني: كنت فين؟!

فأجبته مبتسماً: كنت أصلي المغربَ، فازداد صاحبنا غيظاً وصوته خشونةً وقال - والسيجارة في يده - عبارة لا أنساها ما حييت: (ده كفر، حرام عليك، الدين عمره ما قال كده).

وعبثاً حاولتُ أن أقنعه بموقفي، وما كان منه إلا أن أسرع ليبحثَ لي بين حطام المجزرة التي حدثت للدجاج والبطِ المحمرِ والمشمرِ على المائدة التي كانت عامرةً قبل قليل، وبشق الأنفس وجد بعضاً من تلك الأسرابِ الفانيةِ وقدّمه لي مع الموسيقى المصاحبة بصوته الأجش الحنون قائلا: ما تعملش كده تاني من غير ما تقول لي.

قامات الظل والقيم المزيفة

شاهدتُ وأنا طفلٌ صغيرٌ فيلم ساحر أوز **The Wizard of Oz**، وهو فيلمٌ من إنتاج ١٩٣٩م يستندُ لقصةِ الكاتبِ فرانك بوم، عن فتاةٍ تعيشُ مع كلبها في ولاية كانساس، والتي تدخلُ في حلم جميل مليء بالمغامرةِ والسحر.

وتبدأ رحلةٌ دورثي مع كلبها توتو للبحثِ عن ساحرِ أوز ليحققَ لها أمنيتها في العودة لبيت عمتها، الذي ضلت عنه بسبب الإعصار، ولاحقاً ينضمُ إليها خيال المآتة الذي يفتقرُ للحكمةِ والعقل، والرجلُ القصديريُّ الذي يفتقدُ للقلبِ، والأسدُ الجبانُ الذي يفتقدُ للشجاعةِ، اجتمعوا جميعاً نحو غايةٍ واحدةٍ، وقد تعلقتُ الآمالُ بالساحرِ أوز الذي سوف يلبّي لهم جميعاً ما تمنوا، وبعد ما تكبدوا من أهوالٍ ومصاعب في طريقهم يكتشفون في النهايةِ، أن ساحرَ أوز ما هو إلا قزمٌ متخفيٌّ، ولا يملكُ من السحرِ سوى الإشاعاتِ التي روجت عنه.

تذكرتُ هذا الفيلمَ ووقفتُ عنده كثيراً في عام ٢٠٠٠م عندما انتقلتُ للعمل في المدرسةِ التي درستُ فيها ثلاثَ سنواتٍ من عمري في المرحلةِ الإعداديةِ، ولما عرضوا

علينا اختيار المدرسة التي نرغب في الانتقال اليها بعد سنوات المعاناة في المدارس النائية، لم أفكر كثيراً في اختيار مدرستي القديمة وسط تعجب زملائي من اختياري الطفوليّ رغم أن المصلحة المادية لا تكون إلا بالانتقال لإحدى مدارس عاصمة دمياط العتيقة.

فضّلت مدرستي القديمة وأنا في غايةِ السعادةِ لأني سوف أعمل معلماً بجوارِ مَن درّسوا لي يوماً ما وأنا طالب، ويا له من حلمٍ قديمٍ وأمرٍ عظيمٍ أن تصيرَ زميلاً لمن كان معلمك في يوم من الأيام، ويا ليتني ما فعلت.

فما حدث مع دورثي في فيلم الساحرِ أوز حدث معي في تجربتي التي امتدت لخمسِ سنواتٍ بمدرستي القديمة. فهذا المعلمُ الذي كنتُ أراه قدوةً حسنةً في صغري، وأنتشي بقصصه وحكاويه لنا ونحن نشءٌ صغارٌ، ما هو إلا قامةٌ من الظل الكاذبِ تخفي خلفها قزماً آخر من أقزامِ مملكةِ أوز.

اندهشتُ منذُ اللحظةِ الأولى من خلال تعاملي معه، فقدوتي المهترئةُ لا يجلسُ في غرفةِ المعلمين الرجال، بل قَبِل على نفسه أن يجلسَ مع معلماتِ المادةِ في غرفةٍ ضيقةٍ تتسعُ لهن بالكاد، وقد دعاني للجلوسِ معه فما تحملتُ أكثرَ من دقيقتين، ثم فررتُ منه فراري من

الأسدِ، فكيف يقبل ذكرٌ ما فضلاً عن أن يكون رجلاً أن يجلسَ في هذا الوضع المشين؟

عدتُ لغرفةِ المعلمين، والذين انقسموا إلى فريقين اثنين ما بين مَن يرى أنني سأكون ثاني اثنين لصاحبنا في الغار النسويّ وأقبلُ الجلوسَ معه في معمعةِ النساءِ، وفريقٍ آخرَ راهن أني لن أقبلَ بالأمر وسأعود للجلوس معهم، وإن لم يكن لي بينهم مكان أجلس فيه.

لاحقاً ومع مرور الأيام بدأت الأمورُ تتكشفُ أكثرَ فأكثرَ، فصاحبنا بحكمِ منصبه يقوم باختيارِ التدريسِ لصفوفِ البناتِ ويسندُ فصولَ الذكورِ لنا، وهذا أمرٌ لم يضايقني كثيراً فيما يخصُ الفصولَ التي أدرسها، ولكن الطامةُ الكبرى كانت في إسناده تدريس بعض صفوف الذكور لزميلةٍ فاضلةٍ كانت عائدةً تواً من إحدى دول الخليج، وعبثاً حاولتُ تغيير هذا الأمرِ عبر إسداءِ النصيحةِ له ثم مشاورةِ مدير المدرسةِ وموجهِ المادةِ دون جدوى أو فائدة.

زلاتٌ وإخفاقاتٌ كثيرةٌ وكبيرةٌ وهائلةٌ كشفتها لي الأيامُ تباعاً، فصاحبنا شخصٌ انتهازيّ يبحثُ عن مصالحه الشخصيةِ أولاً وأخيراً، وكلامه عن القيم والمبادئ ما هو إلا أدوات النصب والاحتيال، والطامةُ الكبرى

ضعفه الشديدُ في مادةِ تخصصه، فلا كعباً بلغت ولا كلاباً، أضف لما سبق المكرَ الشديدَ والخبثَ الذي يلقي بظلاله السوداوية على الكثير ولا يكادُ أحدٌ لا يتلظى بناره الخبيثة، وقد كنتُ أنا أحدُ مَن اكتوى بتلك النيران النتنةِ، والتي كادت أن توردني الموارد

وفوق هذا وذاك ولأيديه اللابيضاء مع مَن تعامل معه من الزملاء والزميلات كان بالطبع يفتقد من الجميع الاحترام والتقدير.

وقتها تمنيتُ لو عاد بي الزمانُ وما جعلتُ مدرستي القديمة اختياري التالي في رحلة عملي الوظيفيةِ، رغم أنها تجربةٌ أثرت حياتي بالكثيرِ من الخبرات وأمدتني بأثرةٍ من الحكمة والقدرة الكبيرةِ على فهم أخلاقِ البشر، فحياتنا تزخرُ بالكثير من الذئابِ والثعالبِ، ولن تعرفَ مدى إيلام مخلب الذئب مهما سمعت عنه إلا حينما ينالك شيءٌ من ضربته ووحشيته الداميةِ والتي يخفيها خلفَ قناعِ البراءةِ وأخلاقِ الحملان الساذجةِ.

يوميات عاطف

في فترةِ تجنيدي العسكريةِ - ولأنني من المدينةِ التي لا ترضى لرجالها أن يتلطخوا بوحلِ البطالةِ ولأنني من مدينة دمياط، التي عودتنا منذ نعومةِ أظفارنا أن نتعلمَ حرفةً ما بجوارِ استكمالنا لرحلتنا التعليميةِ في المدارس الحكوميةِ - فقد تم إلحاقي في فترة التجنيد بإحدى ورش تصنيع الأثاثِ التابعةِ للجيشِ الثالثِ الميدانيِّ .

وفي هذه الفترةِ الثريةِ من حياتي بالخبراتِ والتجاربِ التي كان لها الدورُ الأبرزُ في حياتي، حدث من المواقفِ ما لا تنمحي من الذاكرة بحلوها ومرها، بألمها وأملها.

ومن الشخصياتِ التي لا يمكنُ نسيانها، عاطفُ الذي كان تجتمعُ فيه السذاجةُ والحماقةُ بطريقةٍ لا يتخيلها ذو عقلٍ رشيدٍ.

وغالباً لم يكن يمرُ علينا يومٌ من أيامنا في تلك الفترة إلا ونتفاجأ بموقفٍ من مواقفه البلهاء التي تضحكنا حد البكاءِ وتدهشنا لدرجة فقدان عقولنا وقدرتنا على المنطق والتفكير.

ومن تلك المواقفِ الساخرةِ أنّه ذات مرةٍ طلب من الضابطِ المسؤولِ عن الورشةِ التي نعملُ بها أن يأذنَ له في الخروج من الورشةِ الملحقةِ بالفرقة ٢٣م م، ليتوجه إلى قريةِ قمةِ فايد لشراءِ بعضِ بكراتِ الخيطِ التي يحتاجها في أعمالِ التنجيدِ، فوافق الضابطُ على طلبه وأعطاه المالَ اللازمَ لشراءِ احتياجاته، ثم طلب أن يمرَ علينا، فلربما يحتاجُ أحدنا شراءَ بعضِ السلع الغذائيةِ مثلَ الأرزِ والمعكرونةِ والخبزِ ونحو ذلك.

وكان من ضمنِ الطلباتِ التي أُسند إلى عاطفٍ شراؤها طبقُ بيضٍ طلبه منه العسكري القائمُ على خدمةِ الضابطِ الشخصيةِ والذي يُسمّى بين المجندين بـ "السيكا"، ولا أعلم دمياطيا أو صعيدياً قبل هذا العمل مهما كانت المغريات.

عاد عاطفٌ من مهمته وقد اشترى الأغراضَ المطلوبة والتي جمعها في جوالٍ كبيرٍ يحمله على كتفه، وقد اشتمل الجوال ما طلبه زملاؤه من أرزٍ ومكرونة وبطاطس وطماطم وغيرها من الأطعمة التي تقبل أن تجتمع سوياً في هذا الجوال السحريّ.

وصل عاطفُ إلى مكتب الضابط يمشي مشية الأسد الهصور، وبدروه سأله السيكا عن البيض فقام عاطف

بكل همةٍ وحماسٍ بوضع الجوال عن كتفه على الأرض وبدأ في إخراج ما يقابله من أغراضٍ ويضعها جانباً.

بدأ القلق ينتاب السيكا ثم إنه لم يتحمل المشاهدَ التي يراها بأم عينيه وانفجر في عاطف صارخاً: أين البيض؟

رد عاطف ببراءته وعفويته المعهودة: في منتصف الجُوال.

جن جنون السيكا ودخل من فوره إلى مكتب الضابط وشكا له ما فعله عاطف، فانفجر الضابط ضحكا وقال له: هذا مجنون، كيف تطلب منه شراء البيض!!

ثم استدعاه وقال له: أين بقية المال؟ قال عاطف: أي مال؟

انتقلت عدوى القلقِ التي أصابت السيكا إلى الضابطِ وتبددت الابتساماتُ الساخرةُ عن وجهه وزادت حيرته وقال منفعلاً: التي أخذتها مني لشراءِ بكراتِ الخيطِ اللازمةِ للتنجيدِ.

قال عاطفٌ وقد اكتمل نزول ستائر بلاهته على مسرح الأحداث: أي خيط تقصد؟

ولكم أن تتخيلوا بقية الموقف.

موقفٌ آخرُ من المواقفِ العجيبةِ التي لعب بطولتها عاطف حين طلب منه زميلاه أن يشتري كيلو جرامين اثنين من السمكِ المشويَ، والذي كان سعره في هذا التوقيت أربعةٌ جنيهاتٍ ونصفٍ، فيكون المجموع تسعُ جنيهاتٍ على أن يشتري ببقيةِ العشرِ جنيهاتٍ خبزاً.

تلك جنيهاتٌ عشرٌ كاملة تم إعطاؤها لعاطف كي يشتري تلك الأطعمة.

ولأن عاطف يمتازُ كعادته بالنباهة والذكاء الخارق، فبدلاً من أن يشتري كيلو جرامين من السمكِ اشترى كيلو جراماً واحداً بسعر أربعةِ جنيهاتٍ ونصفٍ واشترى ببقية المبلغ خبزاً.. ولك أن تتخيلَ يا عبد الله منظره وهو عائدٌ عودة المنتشي بنصره المؤزر حاملاً فوق رأسه أكثر من مائة رغيفٍ وكيلو سمك واحد سيتم التهامه بتلك المائة من الأرغفة.

لن أسهبَ كثيراً في ردة فعل زميليه وصياحهما الذي بلغ عنان السماء وأركان الفرقة مترامية الأطراف، مع سخرية الآخرين، وشفقة البعض الآخر مع بعضٍ من السخريةِ اللاذعةِ من الزميلين اللذين أسندا تلك الهمة الخطيرة لفلتةِ زمانه ووحيد أوانه صاحب الاسم الحركي "عاطف" .

حصن نابليون والوزة الشقية

قال النَّبيُّ ﷺ لمن سأله عن الساعةِ: «إذا وُسِّدَ الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة» - (رواه البخاري)

مررتُ على هذا الحديثِ فازدحمت ذاكرتي بالعديدِ من المواقف والأحداثِ الدالةِ على خطورةِ إسناد الأمرِ لغير أهله، وما يترتبُ عليه من مصائبَ ومدلهماتٍ تنالُ من البلادِ والعبادِ أفراداً وجماعاتٍ، والأمثلةُ لا تُعد ولا تحصى في كل زمانٍ ومكانٍ خاصةً في زمان الفتن واعتلاء الرويبضات وأشباه الرجال.

ولا يخفى على ناظرٍ لديه مسحةُ عقلٍ وإنصافٍ تلك الظلمات، والتي منها على سبيلِ المثالِ ما يقومُ به صبيانُ جزرِ آل جهليان السبعةِ من إفسادٍ وتخريبٍ، ولمَ لا؟! فإنَّه إذا صار الحفاةُ العراةُ رعاءُ الشاءِ - وهم أهلُ الجهل والجفاء - رؤوسَ الناس، وأصحابَ الثروةِ والأموالِ، حتّى يتطاولوا في البنيان، فإنَّه يفسدُ بذلك نظامُ الدين والدنيا.

بل يكفيك فقط أن توظفَ مَن ليس مؤهلاً لمنصبٍ ما لتسقطَ دولةٌ بأكملها وليس الاتحاد السوفيتي الهالك ببعيد.

كان سلاحا أمضى من أي سلاحٍ، وجاسوساً من أخطر الجواسيس، أسقط إمبراطورية السوفييت النووية، وقد صنعته آلةٌ بيتِ الحريةِ الثقافيةِ الأمريكيةِ.

لم يكن جاسوساً تقليدياً، ينقلُ أسراراً أو يشيعُ الفتنَ أو يزرعُ قنابلَ موقوتةً أو يجندُ الخلايا النائمة.

والقصةُ تبدأُ حين استطاعت المخابراتُ الأمريكيةُ اصطيادَ ضابطِ مخابراتٍ سوفيتي من جهاز (الكى جى بى) الرهيبِ، لم تدربه على أعمالِ التجسس المعتادةِ، لم تطلب منه شيئاًخارقاً للعادةِ يعرضه للخطر، تعهدت له أنه سيبقى في أمانٍ وسيرتقى داخلَ الإمبراطورية السوفيتيةِ ولن تلاحقه أعين ستالين أو أي من خلفائه في الحزبِ الشيوعي السوفيتي.

كان للرجلِ مهمةٌ أمريكيةٌ واحدةٌ، وهى أن يخترقَ المجتمعَ الروسي، يتسللُ أولاً داخلَ القيادةِ السوفيتيةِ، يشيدُ بإنجازاتها، بعدها يصبحُ من أعمدةِ النظامِ حتى ينجحَ في أخطرِ مهمةٍ يقومُ بها جاسوسٌ لن يكتشفَ دوره أحدٌ، فماذا كانت المهمةُ حسبَ رواةِ القصةِ العجيبةِ؟

يُقال: إن هذا الضابطُ السوفيتيّ استطاع خلال ثلاثةِ عقودٍ من الحربِ الباردةِ بين روسيا وأمريكا أن يقضى

على إمبراطوريةِ السوفييت من خلال توظيفِ أردأ العناصر في جسمِ الدولةِ، فإذا تقدم عشرةُ موظفين لشغلِ وظيفةٍ معينةٍ في مصنعٍ أو جامعةٍ أو مؤسسةٍ عامةٍ كان يختارُ الأقلَ كفاءةً، والأسوأ خلقاً، وبمرور الوقتِ تحول الاتحادُ السوفيتي إلى أرضٍ خربةٍ، أرضٍ مهيأةٍ للانهيارِ السريعِ، ساعتها لم تكن أمريكا في حاجة إلى حربٍ نوويةٍ يروحُ ضحيتها الملايين من الطرفين، وبخدمات هذا الجاسوسِ استطاعت أن تحققَ نصراً بلا حربٍ حسب رؤيةِ الرئيسِ الأمريكيّ الأسبق ريتشارد نيكسون.

نجاحُ هذه العمليةِ المتقنةِ جعل واشنطن تكررها في بلاد أخرى، والمحروسة على رأسِ هذه البلاد التي استهدفتها واشنطن، وخلال سنواتٍ طويلةٍ تم وضع الأشخاص غير المناسبين في الأماكنَ غيرِ المناسبةِ، والنتيجةُ انهيار دولةٍ هي أمِّ الدولِ في العالمِ.

واشنطن ليست وحدها هنا، فقد شاركتها إسرائيلُ مستوطنةُ العالمِ الأوروبيّ بفلسطين، ولنتأمل تصريحاتِ مائير دجان رئيسِ الموسادِ السابقِ، - وهو يغادر موقعه - "تطورُ العملِ في المحروسةِ حسبَ الخططِ المرسومةِ منذ عام ١٩٧٩، وأحدثنا اختراقاتٍ سياسيةٍ وأمنيةٍ

واقتصاديةٍ في أكثر من موقعٍ، ونجحنا في تصعيدِ التوترِ والاحتقانِ الطائفيّ والاجتماعيّ لتوليدِ بيئةٍ متصارعةٍ متوترةٍ دائماً ومنقسمةٍ إلى أكثر من شطرٍ لتعميقِ حالةِ الاهتراءِ داخلَ البنيةِ والمجتمع والدولةِ المصريةِ، ولكى يعجزَ أيُ نظامٍ يأتي بعد حسنى مبارك في معالجةِ الانقسامِ والتخلفِ والوهنِ المتفشيّ في هذا البلدِ.

على نطاقٍ ضيقٍ يخصُ مجالَ عملي مررتُ بمحطاتٍ خربةٍ لا تمتلكُ المواصفاتِ الفنية للقيامِ بما أسند إليها من عمل ولا تستطيعُ إنجاز مهماتها على ما يرام.

أتذكرُ أحدَ زملائي من المعلمين في مدارسِ الأملِ للصمِ، وقد صمّم وسيلةً تعليميةً تجمعُ الحروفَ العربية مع صور توضيحية، بحيث يوضعُ فوق كلِ حرفٍ صورةً لحيوانٍ أو معلمٍ بارزٍ يبدأُ اسمه بهذا الحرف مثل (أ) أسد و (ب) بطة.

توقفتٌ عند حرفِ الواو، حيثُ وضع صاحبنا صورةً لطائرِ الإوز، فهمستُ إليه أن مكانَ الصورِ في حرف الألفِ، فأنكر الأمرَ مستهجناً موقفي قائلاً: إنه يدرسُ لهم ما يعرفونه في بيئتهم، فقلتُ له: إذن فعليك أن تضعَ صورةَ ثعبانٍ تحت حرفِ التاءِ، وصورةَ قلمٍ تحت حرفِ الألفِ، لأن بيئة الطلابِ تنطقُ الثاءَ تاءً والقافَ

ألفاً على مذهب مَن يُحوّل الألفَ إلى واوٍ في قصةِ الوزة الشقية.

لم أكد أفيقُ من هولِ ردِ صاحبنا حتى رأيتُ كارثةً أخرى بجوار تلك الوسيلةِ، والتي قام بها معلمُ العلومِ الاجتماعيةِ والذي صمم خريطةً توضحُ فتوحاتِ الصحابيّ الجليلِ عمرو بن العاصِ لمصرَ في العامِ العشرين من الهجرة، وكلُّ مَن درس تاريخَ فتح مصرَ يعلمُ ما حصن بابليون وأهميته.

سقط الحصنُ في يدِ عمرو بن العاص بعد حصارٍ دام نحو سبعةِ أشهرٍ حتى استسلم في الثامنِ عشرَ من ربيعٍ الآخر عام ٢٠هـ، وكان سقوطه إيذاناً بدخول الإسلام في مصر.

يقعُ حصنُ بابليونَ الآن في القاهرةِ في حي مصرَ القديمةِ عند محطة مار جرجس لمترو الأنفاق وكان الإمبراطور تراجان قد أمر ببنائه في القرنِ الثاني الميلادي في عهد الاحتلال الرومانيّ لمصرَ، وقام بترميمه وتوسيعه وتقويته الإمبراطور الروماني أركاديوس.

صاحبنا معلمُ العلوم الاجتماعية اختلط عليه الأمرُ وهو يصممُ الخريطة فلم يفرق بين حصن بابليون والغازي الفرنسي نابليون بونابرت، فكتب: "حصن نابليون!

موقفٌ ثالثٌ أختم به بعضاً من الحسراتِ على ما مر بي من أليم المواقفِ والذكرياتِ، فقد حدث أن قامت إحدى الزميلاتِ بوضع أحدِ الاختباراتِ الشهريةِ في مادةِ اللغةِ العربيةِ للصف الثاني الإعداديّ، وكان من ضمن أسئلةِ القراءةِ أن يختارَ الطالبَ من المتعددِ مفردَ كلمةِ "أسورَة" والتي وردت في قوله تعالى: "فَلَوْلا أُلْقِيَ عَلَيْهِ أَسْوِرَةٌ مِّن ذَهَبٍ أَوْ جَاءَ مَعَهُ الْمَلائِكَةُ مُقْتَرِنِينَ"، والإجابةُ الصحيحة "سوار" خلافاً للهجاتِ العاميةِ المصريةِ التي عكست المفهومَ الدلالي للكلمةِ، وصارت تجعلُ كلمة "أسورَة" مفرداً وتُجمعُ على "أساور". ولأنّ المعلمَ الأولَ للغةِ العربيةِ في ذاك الوقتِ توسّدَ أمراً لا يليقُ بأمثاله فهو يرفلُ في ثيابٍ غيره، فقد قدّم فهمه المغلوطَ الذي يتساوى فيه مع جهلةِ العوامِ على تخصصه الذي لا يدري عنه الكثيرَ، وقام من تلقاءِ نفسه بالمرورِ على الطلابِ أمرهم بتعديلِ الخطأِ المهول وقد أبدى ثورته النارية وعينَ الغول.

جاءتني زميلتي التي أصابتها الحيرةُ من أمرها وسألتني عن الكلمةِ، مفردها وجمعها فأجبتها، فإذا بها تتهللُ أساريرُ وجهها لصحةِ موقفها، ثم تنهدت شاكيةً صاحبنا العالمَ العلامة، الحبرَ الفهامة، الذي قرر وحكم ونفّذ من تلقاء نفسه دون أن يعودَ إليها ويناقشها في الخطأِ الرهيبِ الذي وقعت عليه عينه، التي لا يفوتها حرف آثمٌ، ولا خطأٌ على صدرِ لغةِ الضادِ جاثم.

فقلت لها بحسرةِ الناقدِ الكليمِ: هذا حالُ من يُوسّد إليه ما لا يليقُ به، وصدق من قال: مَن تحدث في غير فنه أتى بالعجائب.

والأمُّ مدرسةٌ

مع انفراطِ أربعةِ أعوامٍ مررن من الألفيةِ الثالثةِ من ميلادِ المسيح عليه السلامُ كنتُ أشقُ طريقي نحو عوالمَ التربيةِ الخاصةِ من خلال جانبي الدراسةِ التخصصيةِ والخبرةِ العمليةِ من خلالِ الانتقالِ من مدارس التعليمِ العامِ إلى مدارس التربيةِ الخاصةِ.

وفي سبيلِ تطويرِ قدراتي المهنيةِ كنتُ أدرسُ هذا المجالَ الجديدَ في جامعةِ عينِ شمسٍ بكليةِ التربية القاطنةِ في روكسي بمصرَ الجديدةِ، ولضيقِ اليدِ في هذه الفترةِ الفارقةِ في حياتي، حيثُ الأسرةُ التي تحتاجُ إلى الرعايةِ والنفقاتِ في مجتمعٍ لا يرحمُ فقيراً ولا يغضُ طرفه عمن يسعى لتطويرِ ذاته ورفع سقفِ طموحاته ما بين همزٍ ولمزٍ وسخريةٍ واستخفافٍ.

وحرصاً مني على توفيرِ بضع جنيهاتٍ بائسةٍ في أسفاري ذهاباً وإياباً من دمياط للقاهرةِ لحضورِ محاضرةٍ أو محاضرتين ضمن موادِ دبلومةِ التربيةِ المهنيةِ بجامعةِ عينِ شمسٍ أو تدريباتِ التخاطبِ واضطراباتِ النطقِ والكلامِ، كنتُ أضطرُ إلى الاستغناءِ عن راحتي من خلالِ استقلالِ مواصلةٍ واحدةٍ وأبدلها

بمشقةِ التنقل والتأرجح بين معاناةِ المواصلاتِ المتعددةِ انتقالاً بين القاهرةِ ودمياط مروراً بالقليوبيةِ والدقهليةِ من محافظاتِ مصرَ.

كلُ ذلك بغية توفيرِ جنيهاتٍ زهيدةٍ تتلاشى تباعاً في رحى المعاناةِ الحياتيةِ ومشاقها.

وفي إحدى تلك الأسفارِ الشاقةِ في شتاءِ مصرَ القارس خاصةً في ساعاتِ الليلِ المتأخرةِ، وأثناء ما كانت السيارةُ تقطعُ طريقَ قرى ومدنِ الدقهليةِ وتحديداً عند قريةِ فيشا، توقف سائقُ السيارةِ ليلتقط رجلاً يعاني من أمطارِ السماءِ، حيثُ لا مظلة تقيه ولا أنيسَ يشاركه المعانة، رجلٌ في نهايةِ عقدهِ الثالثِ غادر الشعرُ حديقة رأسهِ إلا من أطلالِ شعرٍ وبقايا ذكرياتٍ على جانبي الرأسِ اللامع تحت زخاتِ المطرِ المنهمرةِ، ولكسرِ رتابةِ الطريقِ تبادلت معه أطرافَ الحديثِ، وكم سعدتُ عندما علمتُ أنه يقصدُ في نهايةِ مطافه بلدي دمياط**!** حكى لي الرجلُ في صوتٍ تعتصره المرارةُ ومعاناةُ التجربةِ أنه من سكانِ القاهرة وأن عمله في إدارةِ المرورِ اضطره للانتقالِ إلى إدارةِ المرورِ بدمياط الجديدةِ، وأنه يعاني مرارةَ فراقِ أمه الغاليةِ، إضافةً إلى مضايقاتٍ لا تنتهي في مقرِ عمله، وكيف أنهم يستحلون

الرشا في كافة المعاملاتِ؟ فلا يحركون ساكناً إلا عندما تتدفقُ الأموالُ السحتُ إلى أيديهم كي تنفكَ شفراتِ أساريرهم المتجهمةِ وينهوا المعاملاتِ للمراجعين. وكيف أنه يتعجبُ أن منهم أصحابَ لحى يحافظون على صلاتهم في وقتها؟ فلما بادرهم بتساؤله عن حكمِ هذه الأموالِ الحرامِ قالوا: إنها رزقٌ ساقه الله إليهم، وأنه لا شيءَ في ذلك، فالحياةُ تقتضي، وضعفُ الراتبِ يُحتّم. سألته وقد انجذبتُ إليه منبهراً به، فليس من اليسرِ أن تجدَ إنساناً يتحرى الحلالَ في تلك المدنيةِ الحديثة وملامحها الكالحةِ كوجوه أصحابِ السعيرِ.

سألته: وماذا عنك؟ فاندفع في صرامةِ الشرفاءِ وجسارةِ الشجعانِ أنه لا يستحلُ قرشاً حراماً لأنّ أمه قالت له: إياك إيام وأكلَ الحرامِ.

وقعت كلمته في نفسي ولمست أعماقَ ذاتي في حديثه عن الفاضلةِ أمه، تلك القامةُ التي أحسنت التربية وغرسَ الحلالِ في حنايا ابنها منذُ كان جنيناً في ثنايا أحشائها.

سألته: وكيف تعالجُ مصاعبَ الحياةِ وأنت الذي في موقعٍ وظيفيٍّ يسمحُ لك بجني الأموالِ التي تجري كنهرِ مصرَ المكلومِ؟ لو جمّدتَ ضميرك وقيمك ولو قليلاً وتجاوزتَ

تعاليمَ أمك وقيمها التي لا تسمنُ ولا تغني من جوعٍ في وديانِ الذئابِ الضاريةِ التي أُلقِي بنا فيها بدون سابق تعارفٍ أو انسجامٍ.

أجابني بعزةِ نفسٍ وأنفةِ إنسانٍ طاهرِ اليدِ عفيفِ النفس أنه يعملُ عملاً إضافياً في الفترةِ المسائيةِ متمثلاً في إصلاح الغسالاتِ التي تحتاجُ إلى صيانةٍ، وأنه سعيدٌ بهذا الكسبِ الحلالِ وإن كان قليلاً لأن الحرامَ وإن كَثُرَ يجرفُ الحلالَ في طريقه، فلا يُبقي ولا يذر.

تأملتُ ملامحه وسَمته الذي لا يظهرُ عليه علاماتُ تدينٍ ظاهرةٍ اللهم إلا من أثرٍ رقيقٍ من أثرِ السجودِ ينيرُ جبهته كأجملِ وسامٍ، ثم بادرته متسائلاً: وماذا عن زملائك في تعاملهم معك؟

قال في حزنٍ عميقٍ ونبرةٍ صوتٍ جريحٍ، إنهم سعوا للتخلصِ منه من خلالِ وشايةٍ حقيرةٍ إلى مديره في العملِ بأن لديه أخطاءً كارثية في ملفاتِ السياراتِ التي يقوم بعملها، ولكن، نجاه اللهُ الرحمنُ لأنه ألهمه أن يَحذرهم، فما كان منه إلا أن يسجلَ عنده أرقامَ الملفاتِ التي يقومُ بعملها، وعندما عرض تلك الأرقامَ على مديره اتضح أنها وشايةٌ حقيرةٌ من نفوسٍ أشدّ حقارةً وانحطاط.

تساءلت: وما موقف مديرك؟ قال بضحكةِ الأسى وكوميديا المحروسة السوداء: طلب مني أن أدبّرَ أمري مع زملائي لأنهم لن تهدأ نفوسهم التي استساغت الحرامَ إلا أن يتخلصوا مني أو أنزلقَ معهم في منزلقِ المالِ الحرام.

قلت: وماذا عساك فاعلا؟

قال: لا شك أنني سأعود إلى القاهرة حيث أمي الحبيبةُ، فلن أستمرَ في هذا المستنقعَ الآسنَ.

قلت: وهل تختلفُ إدارةُ المرورِ من دمياط للقاهرة؟

أجاب: كلها روافدُ من مستنقعٍ آسنٍ لكني أستمد قوتي وذاتي بجوار أمي.

استفقت من حديثنا الماتع في دمياط قرابة الثانيةِ بعد منتصفِ الليل، فودعته متمنياً أن نلتقي مراتٍ أخرى، فمثله عملاتٌ نادرة وسطَ عوالمَ الزيفِ والخداع .

امرأةٌ بألف

جلسنا سوياً نتجاذبُ أطرافَ الحديثِ وقتَ راحتنا بعد عناءٍ طويلٍ مع طلابنا من ذوي القدراتِ الخاصةِ، حيثُ لا راحة تامةً، بل جرعاتٍ من التقاطِ الأنفاس ثم معاودةِ الانخراطِ بينهم لتدريبهم وتعليمهم، معاناةٌ مشوبةٌ بلذةِ صدقِ النيةِ وتجديدها لنيلِ الثوابِ من تدريبِ وتأهيلِ تلك الفئةِ التي تعاني كثيراً من التهميشِ وعدمِ التقديرِ وربما العنصرية في صورها السوداء.

سألته عن بدايته مع التربيةِ الخاصةِ وما الذي دفعه للولوج إلى عوالمها الغامضةِ والمرهقةِ.. ولما جاء دوري سرحت بخاطري إلى الأعوام الأولى من هذه الألفية الثالثة وقتما كنتُ معلماً للغة العربية في إحدى مدارس بلدتنا، وحديث الزملاء والزميلات عن انضمام زميلةٍ عائدةٍ من سلطنةِ عمان بعد تسع سنواتٍ من الغربة خارج الديار.

وكنتُ أستغربُ سببِ عودتها، والذي أجابت عنه باشتياق أولادها لترابِ المحروسةِ وأهلها.

قاطعني زميلي متسائلاً عن دور تلك المرأة فيما نتحدث عنه، فطالبته أن يصبرَ قليلاً حتى تتكشفَ له خيوطُ الأحداثِ.

لم يعجبني موقفُ المعلمِ الأولِ للمادةِ حينها عندما أسند إليها تدريس صفين من صفوفِ البنين دون البنات في حين أنه يؤثر نفسه بتدريس البنات.

اشتكت هي من طلابها الذكور وطالبت بتعديل تلك الأوضاعِ المقلوبةِ، لكنه رفض لغرض في نفسه فاعترضتُ عليه، حيث إنه أمرٌ يخالفُ حتى أمارات المروءة وتحري العدالة ووضع الأمورِ في نصابها الصحيح.

قوبل اعتراضي بالتغافلِ والابتساماتِ البلهاء، فحولت الأمر لمدير المدرسة الذي لحق بسابقه في دربِ التغافلِ ومراعاة الموازنات.

لم أتقبل هذا الوضعَ المقلوبَ، وفي أول اجتماعٍ مع موجه المادةِ طرحتُ الموضوعَ على الملأِ فما كان من الرجلِ الذي ظننه يعيدُ الأمورَ لنصابها يتجنبٌ المواجهة ويختارُ طريقَ الأمرِ الواقعِ حتى علا صوتي في مناقشته وتذكيره بأنه أمر يتنافى وأبسط قواعدِ صفاتِ

الشهامةِ والمروءةِ حتى قاطعتني صاحبتُ الأمرِ قائلةً: "لا عليك وموقفك أشكرك عليه".

تعجبتُ من موقفها كثيراً وسط نظراتِ الشماتةِ وعلاماتِ النصرِ العرجاءَ من المعلمِ صاحبِ النخوةِ المهترئةِ .

لكن قلتُ لنفسي، لعل لها حساباتٌ أخرى، خاصةً أنها تمتازُ بالهدوءِ والكلامِ المتزنِ والمحسوبِ.

تساءل زميلي: وماذا فعلت هي ضد هذه الحساباتِ المغلوطةِ والأفعالِ التي تعبرُ عن خسةِ أصحابها وضحالةِ بضاعتهم في سوقِ المروءةِ ومواقفِ الرجال؟ أجبته أن مطالبتها بصمتي كان وراءه تدبيرٌ ما يُنهي تلك السخافاتِ.

وفعلاً لم يمر كثيرٌ من الوقتِ حتى تفاجأتُ بخبرِ انتقالها من المدرسةِ إلى مدرسةِ الأملِ للصم.

مرت الأيامُ وصارت الواقعةُ مجرد ذكرى طُويت في سجلِ الأيامِ المتلاحقةِ وأحداثِ الحياة، إلى أن التقيتها في توجيهِ اللغةِ العربيةِ بعد عامٍ، فسلمت عليها فتذكرتني بالكاد، بموقفي معها لا باسمي، فذكرتها بنفسي وسألتها عن سر تواجدها في توجيه اللغةِ العربيةِ، فأخبرتني أنها

بصددِ السفر إلى دولة الكويتِ حيثُ تعاقدت هناك للعمل، وأنها استغلت العامَ المنصرمَ في عمل دراساتٍ عليا في مجالِ التربيةِ الخاصةِ ونمَّت خبراتها من خلال العمل مع ذوي القدرات الخاصة، ثم نصحتني بالانتقال حيثُ كانت تعمل هي حيث سيخلو مكانها بسفرها، وأخبرتني كيف وأين أحصلُ على ما حصلت هي عليه من دراساتٍ وخبراتٍ في التخصص الذي أجهله جهل أبي بعلوم الذرةِ والفضاءِ الخارجيّ، بل وأوصت موجه اللغة العربية بمساعدتي في انتقالي إلى مدارس التربيةِ الخاصةِ.

انتهى اللقاءُ غير أني لم أعد هذا الشخص الذي كان قبل هذا اللقاءِ العابرِ وتلك الصدفة التي غيرت مجرى حياتي لاحقاً.

لم أجعل تلك النصائحَ الثمينة تضيعُ سدى، فقد صحت في مكنون ذاتي كما صاح أرخميدس عندما اكتشف قانون الطفو وهو يستحمُ في حمام عمومي، فخرج في الشارع يجري ويصيحُ (أوريكا، أوريكا)؛ أي وجدتها وجدتها.

نعم مرت سنواتٌ طويلةٌ على امتهاني لمجالِ التدريس غيرَ أني كنتُ أشعرُ أن هناك هاتفاً ما يناديني إلى وجهةٍ

ما لا أعلمها حقَ العلمِ والمعرفةِ حتى ظهرت تلك المرأةُ ذات القدراتِ غير الاعتيادية، والتي أنارت لي الدربَ نحو تحقيق ذاتي وأشارت ببنانها نحو مضمارِ السباق الذي بدأ فعلاً يوم قابلتها صدفةً في مقرِ توجيه مادةِ اللغةِ العربيةِ.

لم أنتظر طويلاً حيثُ بدأت مسيرتي في عوالمِ التربيةِ الخاصةِ، حيثُ نفذتُ خريطة الطريق التي قبضتُ عليها بكلتا يديّ المتعطشتين لطموحٍ فياضٍ كان ينقصه حسنُ توجيهٍ وعينٌ بصيرةٌ نحو منابع التمايز وتقديرِ الذاتِ. التحقتُ سريعاً بمجالِ التربيةِ الخاصةِ، واستكملتُ دراستي العليا لمزج الخبرةِ مع الدراسةِ المتعمقةِ وتوالت الخبراتُ والشهاداتُ، ومرت السنواتُ حتى تحققت رغبتي في السفر، حيثُ مجالُ تفجرِ الطاقاتِ وبزوغِ معالمِ التفوق بعيداً عن العقباتِ الكؤودِ التي عطلت مسيرتي سنواتٍ وسنواتٍ من عمري.

قاطعني زميلي: وهل ما زلتَ متواصلاً مع تلك المرأةِ ذات الأثرِ البالغِ في حياتك؟

أجبته بأسف شديد: انقطعت أخبارها منذ تلك اللحظةِ الفاصلةِ في حياتي المهنيةِ، قال: وهل تعرفٌ عائلتها؟ فما أهملني في ذكر الكثيرِ عنها حتى بادرني باسمها.

نالت مني الدهشةُ مبلغها وتعجبت أشدَ العجب وسألته بدهشة بالغةٍ: كيف وأين ومتى ولماذا؟

ضحك مني وأخبرني أنه يعرفها منذ سنواتٍ طويلةٍ، بل هي التي سعت لزواجه بعد أن كان عازفاً عنه.

وسريعاً حصلت منه على هاتفها وحسابها على موقع التواصل الاجتماعيّ فيس بوك، وتواصلت معها وأرسلت اليها صورةً فوريةً لي مع زميلي كي أزيلَ عنها علاماتِ الدهشةِ وأقطعَ عقدِ الشكِ التي قد تنال منها، ثم قصصتُ عليها قصتي التي لم تعرف منها سوى بدايتها التي تذكرتها بالكادِ، وتعجبت أشد العجب أنها كانت سبيلاً لقصةٍ من قصصِ النجاح في الحياةِ، ونوراً أضاء الدربَ أمام طموحٍ واعدٍ كان يتخبطُ في بداياتِ الطريق.

عندما يرعى الغنمَ الذئابُ

اتصل بي توجيهُ اللغةِ العربيةِ صيفَ ٢٠٠٤ ليبشرني برغبةِ مدرسةِ الأملِ للصمِ وضعافِ السمعِ في سدِ شاغرين لديها في تخصصِ اللغةِ العربيةِ، فكدتُ أطيرُ فرحاً، لا سيما بعد انتهاء تجربتي سريعاً مع فصول السمع الملحقة على المدارس العادية نظراً لعدم اكتمالِ النصابِ القانونيّ لأعداد الطلاب والذي يسمحُ بفتحِ صفٍّ جديدٍ لضعافِ السمع.

سارعتُ بعملِ الإخلاءِ من مدرستي التي كنت أعملُ بها، بل وأقنعتُ أحدَ زملائي الذي يعملُ بمدرسةٍ أخرى بالانتقالِ معي إلى مدارسِ التربيةِ الخاصةِ، وفعلاً شاء اللهُ أن يسبقني زميلي في إنهاءِ إجراءاتِ النقلِ واستلامِ العملِ بمدرسةِ الصمِ وضعافِ السمعِ.

في اليومِ التالي، وأنا في طريقي لاستلامِ العملِ، اتصل بي التوجيهُ مرةً أخرى وأعلمني أن مديرةَ المدرسةِ أبلغتهم أنها غطت العجزَ لديها وليس لديها رغبة أو حاجة لي!

جن جنوني وانتابني الغضب الشديد، فما الذي قلب الطاولة وغيّر الأحداثَ؟ وهل لزميلي دورٌ في تلك الأحداث الدرامية؟

حاول توجيهُ اللغةِ العربيةِ التهدئة من روعي، وخيرني بين قبولِ العملِ بمدرسة النور للمكفوفين أو المجازفةِ وإلقائي في أتون تلك المرأةِ المتجبرةِ، وأنه لا فرقَ بين المدرستين فكلامها ضمن مجالِ التربيةِ الخاصةِ، وكلاهما يشتركان في مبنيين ملتصقين.

نمت ليلتها والغيظُ يكادُ يقتلني، بل وأصابتني بعضُ الحمى من فرط النقمةِ وضبابيةِ المشهدِ ولما استيقظتُ صباحاً توجهت لله تعالى بالدعاء مستلهماً قولَ نوحٍ عليه السلامُ: "ربِ إني مغلوبٌ فانتصر"..

أخيراً قبلتُ العرضَ بعدما استخرت الله تعالى، وفعلا استملت عملي في مدرسة النور، وسريعاً أتقنت القراءةَ والكتابة بطريقة برايل الخاصة بالمكفوفين بفضل الله الذي هيأ لي إحدى خريجات المدرسة من الكفيفات التي ساعدتني في ذلك.

ورويداً رويداً بدأت الأمورُ تتكشفُ وعرفت سببَ رفضِ مديرةِ المدرسةِ لي، وتذكرت أنني زرتها في مدرستها يوماً ما فترة عملي بفصولِ ضعافِ السمع، وأن باطنها

أبداً لم يكن كظاهرها وقتها بل كانت مقابلتها لي كسورٍ له بابٌ باطنه فيه الرحمة وظاهره من قِبله العذاب.

وخلاصةُ القولِ إنها لم تسترح لمظهري وسمتي الذي أعطاها مؤشراً مبكراً أنني قد أكونُ صاحبَ ضميرٍ أو بقيةٌ من أمانةٍ قد تسبب لها لاحقاً مشاكلَ هي في غنى عنها.

فئةٌ من البشرِ ابتلاها الله تعالى بالحرمانِ من نعمةِ السمع، ووفرت لها الدولة من الخدمات ما يناسبُ تأهيلَ وتعليمَ وتدريبَ هؤلاء المساكين، وعُهد لمثل هذه المديرة برعايتهم ومتابعتهم وبدلاً من أن تتقي الله في عملها وتراعي ضميراً من المفترض أنه يسكنَ بين جنباتها، إذا بها تستغلُ منصبها في استعطافِ رجالِ الأعمالِ واهلِ الخيرِ للتبرعِ لهؤلاء المساكين، ثم الاستيلاءِ على تلك الهباتِ والتبرعاتِ العينيةِ والماليةِ بأساليب يعجز عنها بنو إبليس أن تتفتق أرواحهم الخبيثة بها.

وصدقا إذا صلح الرأسُ صلحت بقيةُ الأعضاءِ وإذا فسد فلا تنتظر من أعضائه خيراً.

أجادت تلك المرأةُ اختيارَ مَن يعمل تحت يديها الآثمة ومن يشذ يشذ خارج مملكتها - إلا من ثلة قليلة أبت أن

تترك المكان حرصاً على هؤلاء الطلبةِ المساكين متحملين في ذلك العنتَ وما يرونه من فسادٍ.

ولذا كان لا بد من حرماني من تلك الحدائقَ الخاصة كي لا أعكرَ عليهم صفو نهرهم الجاري المتدفق بالهباتِ والأموال.

بل أتذكرُ أنني لم يمر علي عملي مع فئاتِ المكفوفين إلا أياماً معدوداتٍ واذا بها تحضرُ صباحاً وقت الطابور المدرسيّ وتصيح بصورةٍ خرقاء لتبدو في أوج حماقتها وتوجه كلامها لي: كيف تشككُ في ذمةِ القائمات على المطبخ وأنت لم يُكتب اسمك بعد في التربية الخاصة إلا بالقلم الرصاص!

لم أعرها اهتماماً وقتلتها بابتسامتي وإعراضي عنها، لم أتوقع أن يصلها سريعاً ما حدث بالأمس عندما اعترضت على أنصبةِ الطلبةِ المكفوفين من الطعام المخصص لهم وقتَ الغداءِ، حيث طالبت المسؤولة عن توريدِ الطعامِ بالالتزامِ باللائحةِ المعلقةِ على حائطِ المقصفِ الذي يتناولُ فيه الطلبةُ الطعامَ، فلما رفَضتْ هددتها بتصعيدِ الأمرِ إلى إدارةِ التربيةِ الخاصةِ، فما كان منها إلا أن تجاوزت المسألة ظاهرياً واستكملت النواقصَ من الطعامِ لتمررَ الأزمة في حينها، لكنها

هرعت لعتبة سيدتها طالبةً منها تدخلها السريع لإيقافِ مّن قد يعكرٌ عليهم صفوهم ويكشف سوءاتهم.

موقفٌ آخرُ من مواقفها المخزيةِ حين عهدت لمعلمٍ لديها يدعى عبد السلام - وما أراه إلا عدواً للسلام - حيث عهدت إليه بإغلاق ميازيب أسطح مدرسةِ المكفوفين ليمنع انسكابِ مياهِ الأمطارِ على الأرض بعيدًا عن جدرانها، وفعلا ومع هطولِ الأمطارِ الشديدِ في فصلِ الشتاءِ واحتباسِ المياهِ، بدأت المياهُ تتسربُ إلى غرفِ الطلابِ المكفوفينِ وإلى ملابسهم وكتبهم، فذهبت مع أحدِ زملائي إلى سطح المبنى لاستكشاف الأمرِ فهالنا قدرُ المياهِ المتراكمةِ الآسنةِ والتي تحولت للونِ الأخضرِ لطولِ فترة انحباسها، ولما تحسسنا الأمرَ اكتشفنا أنّ هذا الظالمَ قد أغلق فتحاتِ الميازيب بمادة الزفت القاسية! ولكن سبحان ربك الذي لا يغفلُ ولا ينامُ، وكما قال الشاعر:

لا تظلمــنَّ إذا ما كـنت مقتدراً

فالظُلْمُ مَرْتَعُهُ يُفْضِـي إلى النَّدَمِ

تنامُ عَيْنُــكَ والمَظْلــومُ مُنْتَبِـهٌ

يدعــو عليك وعين الله لم تنم

ولأن الظالمَ يأتيه هلاكه من حيثُ لا يحتسبُ، فقد وقعت على رأسها ضرباتٌ موجعاتٌ متتالياتٌ من ضرباتِ القدرِ العادلةِ، والتي كانت بدايتها باكتشافِ تبديدها لأموال كانت موجهةً لشراءِ آلاتٍ ومعداتٍ خاصة لمجالِ التدريبِ المهنيّ للطلابِ الصم.

ثم إنها لم تكد تفيقُ من تلك الفضيحةِ حتى أوقعها ظلمها في حادثةٍ مؤلمةٍ أخرى، حيثُ حاول أحدُ الطلابِ الصم التعدي على إحدى زميلاته داخلَ حماماتِ الطالباتِ في ظل غيابِ المراقبةِ والإشرافِ مما جعل الطالبةُ تدافعُ عن نفسها بعدما فشلت في إيصال استغاثتها - وهي الصماء فاقدة حاسة السمع والقدرة على الكلام.

حاول هذا الذئبُ الكاسرُ أن يدخلَ عليها الحمامَ عنوةً ودفع الباب وهو الثور الهائج، فانكسرت قدم البنت المسكينة وهي تدافع عن شرفها، ثم ساءت حالتها لاحقاً بسبب إصابتها بمرض السكريّ وهشاشة العظام، فقام الأطباءُ ببترِ قدم البنت المكلومة، ثم ساءت الأمورُ سريعاً وانتهت بوفاتها.

ثم كانت ثالثةُ الأثافي حيث إن المصائبَ لا تأتي فرادى، فبينما كانت الكوارث تفور على صفيحِ تلك الأحداثِ الساخنةِ اكتشف بعضُ الطلابِ الصم الذين يبيتون ليلاً

بالمدرسة - حيث توفر الدولةُ المبيتَ والرعاية اللازمة للطلاب الذين تبعد ديارهم عن المدرسة حيث بيوتهم في أطرافٍ نائيةٍ عن قلب المحافظةِ مما يحول جهداً ومالاً بين ذهابهم وإيابهم يومياً.

اكتشف بعضُ الطلابِ دماءً على سريرِ وملابسِ زميلِ لهم بالمرحلةِ الابتدائيةِ، حيث تعرض المسكينُ في غفلةٍ وتراخي معدومي الضميرِ من المشرفين إلى الاعتداءِ الجنسيّ من بعضِ الطلابِ بالمرحلةِ الثانويةِ.

تطور الأمرُ سريعاً وقام والدُ الطفلِ برفع دعوى أمام المحاكم ليطفئ فاجعة قلبه على ابنه الذي اجتمعت عليه إعاقته وانتهاك طفولته البريئة.

انتهت الأحداثُ المتسارعةُ باستبعادِ تلك المرأةِ فاقدةِ الضميرِ ومعاني المروءةِ من العملِ في مجالِ التربيةِ والتعليم، فهي لا تصلحُ لتربيةٍ ولا تعليمٍ، فضلاً عن مجالِ التربيةِ الخاصةِ، إضافةً إلى استبعادِ كلِ مَن تورط معها في تلك الكوارثِ من العملِ مع هؤلاء المساكين من ذوي القدراتِ الخاصة، وصدق الله تعالى: "وَلا يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إلا بِأَهْلِهِ."

طبيبٌ بمرتبةِ إنسان

مَن لي بمثلِ سيرك المدلل، تمشي رويداً وتجيءُ في الأول

خرجنا كعادتنا في عطلةِ منتصفِ العامِ لأداءِ نسكِ العمرة، خرجنا التماساً لمغفرةِ اللهِ وزيارةِ بيته الحرام ثم السلامِ على خير البريةِ ﷺ، وقد نويت في هذه المرة أن أعتمر عن أحد أجدادي رحمهم الله جميعاً، ثم توجهتُ بالسؤالِ إلى زوجتي: لمن وهبتِ هذه المرة من الأقاربِ؟ قالت: وهبتها إن شاء الله إلى الطبيب "ع / خ" رحمةُ اللِه عليه، كما كان سبباً من الله في حياة ابننا الأول.

سرحت بخاطري سنواتٍ وسنواتٍ وتذكرتُ هذا الرجل ذا النفس الرحيمةِ والأخلاقِ النبيلةِ في وقتٍ انعدم فيه الرجالُ ذوو المروءةِ، ممن تتوسمُ فيهم النفعَ والوفاءَ؛ وإن كانت الثمرةُ المرةُ لهذا النفع التعرضُ للأذى والبلاء.

تذكرتُ عندما رزقنا اللّه بطفلٍ كان أولَ ثمرةٍ لنا بعد زواجٍ قاربَ العامين، وكيف أن هذا الوليد تعرضَ لخطرِ الموتِ بعد مولده بساعاتٍ معدوداتٍ؟ مما

استدعى سرعة عرضه على طبيبٍ متخصصٍ في الأطفالِ حديثي الولادة، وقد كان من توفيق الله أن هدانا لهذا الرجلِ النبيلِ ذي الثلاثين عاماً.

كان الزمنُ يشيرُ إلى الخميس، حيثُ اليومُ الثاني من عمر طفلنا من شهرِ أكتوبرَ ٢٠٠٣، وعندما قام الطبيبُ بتوقيعِ الكشفِ عليه قال: إنه في حاجةٍ شديدةٍ لوضعه في إحدى حضّاناتِ الأطفالِ المبتسرين وحديثي الولادةِ؛ وأنه سوف يجتهدُ لتوفيرِ حضّانةٍ له من ضمنِ خمسِ حضّاناتٍ لا تمتلكُ أكبرُ مستشفياتِ مدينتنا الحكومية غيرها.

اتصل بي الطبيبُ صباحَ الجمعةِ، وطلب مني أن أسرعَ بإحضارِ الوليدِ إلى المستشفى، حيثُ إنّه نجح في توفيرِ حضّانةٍ للطفل.

سارعنا إلى المستشفى على عُجالةٍ حيثُ قابلنا الطبيبَ ووضعَ الطفلُ في الحضّانةِ وطلب مني أن نكثرَ من الدعاءِ والصلاةِ.

خرجتُ من غرفةِ الحضّاناتِ وقابلتُ لدى البابِ الطبيبَ الذي يرأسُ المكانَ "أ/ ر"، وكان ذا سمتٍ حسنٍ ولحيةٍ

تدلُ على تدينٍ وأخلاقٍ، سلمت عليه وكلي سعادةٌ وأملٌ لأني وجدتُ مثله ممن آمنه على طفلي الوليد.

مرت الأيامُ الحرجةُ ونجّى اللهُ ابننا بفضلِ رعايةِ الطبيبِ الإنسانِ ذي الأخلاقِ التي ارتفعت الي السماء وغادرت دنيا البشر.

بعد أن مرت الأزمةُ تجلت لي معالمُ الحقيقةِ وشمسُ معرفتها النجلاءَ، وكان درساً قاسياً من دروس الحياةِ التي تصقلُ خبراتنا بالتجاربِ والمحنِ.

هذا الطبيبُ الإنسانُ قام بتوفيرِ مكانٍ لابني بالحضّاناتِ دون استئذانِ رئيسه المباشرِ ذي السمتِ الحسنِ - أو هكذا ظننت -وكان مبرره أنّ إنقاذَ حياةِ طفلٍ لا تستدعي الإجراءاتِ الغبية الروتينية التي قتلت الحياةَ في مصرَ، وإذا بالرئيسِ المباشرِ في العملِ يكتبُ بخروجٍ فوريٍّ لابني لأنه كان قد وعدَ أحدَ زبائنه بعيادته الخاصةِ بإدخالِ ابنهم إحدى الحضّاناتِ، ولكن عكّر عليه ذلك ما قام به مرؤوسه الإنسانُ.

اضطر الطبيبُ أن يبيتَ في المستشفى ليمنعَ خروجَ الطفلِ من الحضّانةِ لخطورةِ الأمرِ على حياته مما فجر

بركانُ غضبِ رئيسه الذي حوله للتحقيق لمخالفةِ الأوامر.

تحمّل الطبيبُ هذا التعنتَ في سبيل إنقاذِ حياةِ الطفلِ والذي توقع من ملاحظته له أنه أُصيب بفيروسٍ قاتلٍ يقضي على حياته في غضون ٤٨ ساعةً، ولكن يجبُ انتظارُ نتائج تحليلِ الدمِ والتي تستغرقُ هي الأخرى ٤٨ ساعة، لم ينتظر النتائجُ لأن الوقتَ يداهمه فقام بعلاجِ الطفلِ بما يقاومُ هذا الفيروسَ، وسبحان الله جاءت نتائجُ التحليلِ وفقَ توقعاتِ الطبيبِ الشابِ وكتب اللهُ الحياةَ للطفل على يدٍ حانيةٍ لم تلوثها المصالحُ الدنيويةُ الفاسدةُ. علمتُ لاحقاً أن الطبيبَ لم يكن ليهنأ بشيءٍ من راتبه بسبب الخصوماتِ والجزاءاتِ التي ينالها جراءَ اعتراضه على مافيا الفسادِ وبؤره العفنةِ.

أجهزةٌ هامةٌ حبيسةُ المخازنِ، حيل بينها وبين أن ترى النورَ لتنقذَ حياةَ الكثيرِ من أرواحِ الأطفالِ الصغارِ.

وكم من مرةٍ ينهارُ فيها الطبيبُ وهو يرى أطفالاً أبرياءَ ينهشهم الموتُ ولا يستطيعُ إنقاذهم لنقصِ المعداتِ والأجهزةِ التي يمنعُ ظهورها مصالحُ المفسدين!!

وكم فيك يا مصرَ من مضحكاتٍ ولكن، ضحكٌ كالبكا. مر على هذه الواقعةِ عامٌ واحدٌ، وإذا بخبرٍ أليمٍ يصلُ إلينا أفسدَ علينا كلَ جميلٍ وعكر علينا الحياةَ، مات النورُ وانطفأ السراجُ السماويُّ.

لم يتحمل الطبيبُ ما يراه من فسادٍ ونفوسٍ أشد سواداً من غربانِ الهلاكِ، فنالت الهمومُ من جسده وتوارى جسده تحت الثرى، لكن ارتفعت روحه الطاهرةُ إلى بارئها تشكو ظلمَ بني البشرِ وخرابِ القلوبِ.

راقصةٌ وترقص – لقد وقعنا في الفخ

في فبرايرَ من عام ٢٠٠٩ تم ترشيحي من قِبل إدارةِ مدرستي الخاصةِ برعايةِ وتأهيلِ المكفوفين وضعافِ البصرِ، للانضمامِ للمشرفين على الرحلةِ الترفيهيةِ لطلابِ المدرسةِ بمدينةِ الملاهي "ماجيك لاند" بمدينةِ ٦ أكتوبرَ، ولا شكَ أن هؤلاء الطلابَ يحتاجون لرعايةٍ خاصةٍ وإشرافٍ متواصلٍ دون تركهم وحدهم لأنهم من المبتلين بفقدِ البصرِ، وإن كانت بصيرتهم خيراً من ملايين من أصحابِ البصرِ الخداع.

وصلنا مدينة الملاهي وشرعنا في برنامجِ الرحلةِ وإدخالِ السرورِ على طلابنا من خلالِ انخراطهم في الألعابِ المختلفةِ والفقراتِ الثقافيةِ والفنيةِ المتنوعةِ، حتى انتهى بنا الحالُ إلى دخولِ قاعةٍ كبيرةٍ تتضمنُ الأنشطة الفنية ما بين فقراتِ التنورةِ وأغاني الأطفالِ والمشاهدِ التمثيليةِ بالعرائس، وكلُّ ما فات لا غبار عليه حتى دخلت راقصاتُ الفنونِ الشعبيةِ، فصرتُ في حيرةٍ من أمري، هل أغادرُ المكانَ تاركاً مجموعة طلابي المسؤول عنهم وحدهم في خضمّ من الفوضى وصخبِ الأصواتِ وازدحامِ المكانِ بالبشرِ، أم أطلبُ من زملائي

المشرفين أن نخرجَ فوراً من القاعةِ، أم تكونُ ثالثة الأثافي وأستمرُ حتى تنتهي الفقرة؟

وبعد رفض الزملاءِ لفكرةِ الانسحابِ قبل انتهاءِ الفقرةِ الراقصةِ لم يكن هناك حل سوى الاستمرار مع طلابي، وفعلا انتهت الفقرةُ وتابعنا برنامجَ اليوم الترفيهيّ حتى انتهى بنا المآلُ إلى الصعودِ إلى الحافلةِ للعودةِ الى دمياطِ.

وهنا هامستني زميلتي الفاضلة "أ- ف" وقالت: أخشى ما اخشاه أستاذي عند عودتك للبيتِ أن يتفوه ابنك الصغيرُ ذو الخمسةِ زهورٍ من عمره بكلماتٍ تحرجك أمام زوجتك عندما يرتمي في أحضانها وتسأله عما شاهده وأعجبه في رحلته، فيخبرها عن فقرةِ الرقص الشعبيّ، فابتسمتُ مستنكراً وقلت لها: إنه طفلٌ صغيرٌ لا يعي مثلَ تلك الأمورِ فقالت: دعني أجربُ شيئاً كي يطمئنَ قلبي، ثم نادت عليه وقالت له: حبيبي عندما تعودتُ للبيتِ ماذا ستخبرُ أمك عما شاهدته اليوم واستمتعت به من ألعابٍ جميلةٍ ومبهرةٍ؟

فاندفع الطفلُ في قوله ببراءته ورقته قائلاً: سأخبرُ أمي أن أبي شاهد الراقصة وهي ترقصُ.

فضحكت زميلتي وقالت: لقد وقعنا في الفخ.

الأقنعةُ البشريةُ

تتفاوتُ الأقنعةُ البشريةُ في ألوانها وكثافتها وأصنافها، فمنها ذاتُ الألوانِ الفاتحةِ بدرجةِ نقاءِ قلوبِ واضعيها، ومنها ذاتُ الألوانِ الداكنةِ بمعاناةِ مَن يغوصُ في أعماقِ بحرٍ لُجيٍّ ظلماته بعضها فوقَ بعضٍ، إذا أخرج يده لم يكد يراها من شدةِ الليلِ البهيمِ الذي يستترُ خلفه صاحبُ هذا القناعِ المنتمي لرؤوسِ الشياطين.

ومنها ذاتُ الأعمارِ القصيرةِ التي يضطرُ إليها واضعيها في ظرفٍ ما تفرضه عليه عقباتُ الحياةِ وقسوتها، ومنها ذاتُ الدهورِ المديدةِ تكادُ تكونُ كالعازلِ الفولاذيِّ الذي يستحيلُ معه تمييزِ سوءِ باطنِ واضعه لمهارته وقدراته الفرديةِ الخارقةِ في الخداعِ ونسجِ شركه لضحاياه المغبونين.

ومنها أقنعةٌ تُصنّفُ إلى أقنعةِ الهواةِ وأقنعةِ المحترفين الذين أجادوا الفنَ، فلا عاصمَ من نارهم إلا من لاذَ بحصنِ اللّهِ المنيعِ.

وفرقٌ شاسعٌ بين من يرتدي قناعاً يستترُ به ليحجبَ بعضاً من خصوصياته فيحسبه الجاهلُ غنياً من التعففِ ورفعةِ نفسه رغمَ رقةِ حاله واحتياجه وبين المحترفِ

الذي يمتلكُ أعداداً لا تُحصى من الأقنعةِ المتنوعةِ ليخدعَ غيره ويعبثَ بحياتهم أو يستبيحَ حماهم الحصين، لذا كان لزاماً أن تعي حيلَ الزمرةِ ذاتِ الأقنعةِ الداكنةِ لا لتنضمَ لفرقتهم المسرحيةِ تتجولُ معهم بين النفوس لتخدعها وتستبيحُ حدودها، بل لتتحصنَ ضدهم وتجتنبَ حيلهم، كما قال الفاروقُ عمرُ رضي اللهُ عنه: لستَ بالخبِّ ولا الخبُّ يخدعني.

ليس بالضرورة عندما تنشر معلومات طبية عن كوفيد ١٩ أنك طبيب متخصص في هذا المجال ولا عندما تسجل إعجابك بمنشورات عن الزراعة العضوية أنك مهندس زراعي منخرط في هذا العمل، كذلك ليس بالضرورة عندما أكتب في مجال الأدب وأنشر أعمالي الأدبية أن تقوم سموك باعتلاء كرسي القضاء الشامخ وعلم النفس العميق، ثم تحلل شخصيتي وتنزل حكمك على شخصي التعيس بأني مراهق غارق في الحب والهيام، ثم يعجبك دورك الأبله فتتقمص شخصيتك الساذجة أكثر فأكثر، وتستبيح حياتي وتصنفني وفقا لتصوراتك التي سجنت فيها نفسك بنفسك، ثم تزيد عليك علتك ومظاهر خبلك فتعاتبني أنني خالفت تصنيفي الذي وضعتني فيه سابقا، ثم تدعو الله مشفقا أن يردني إليه ردا جميلاً.

علاقات(H وT)

كثيراً ما كنتُ أتوقفُ عند عباراتٍ مطاطيةٍ وهلاميةٍ وعلى غير قناعةٍ تامة بها، ومثالُ ذلك عدمُ قناعتي الشخصيةِ بالصورةِ التي أرى فيها نوعيةً من العلاقاتِ الإنسانيةِ التي يزدهرُ فيها البعضُ بانعكاس إشراقاتِ آخرين في حياتهم، وعلى النقيض نرى أن البعضَ ينطفئُ متأثراً بعتمةٍ تبددُ طاقته وتعكر صفو حياته.

كم كنتُ حريصاً على التمسكِ بالعلاقاتِ التي قوامها على هيئةِ حرف (H)، كما كنتُ أشدَ حرصاً الهروبِ وتجنبِ العلاقاتِ التي على هيئةِ حرف (T)، لأنّه بالمنطق لو سمحت لنفسك أن تُمثّلَ الجزءَ الأفقيّ في حرف (T)، ثم تتفاجأُ بالطرفِ الثاني يتخلى عنك وتخلو منه يمينك، فإذا بصرحك يتأثرُ وينهارُ، على الجانبِ الآخرِ في علاقةِ حرفِ (H) فالأمر يختلفُ على النقيض تماماً، فأنت كالجبل الأشمِّ متجذرٌ في الأرض ورأسك محلقةٌ في السماءِ، وضعٌ يحفظُ لك اتزانك ويحميك من مخاطر الانهيار.

وشيئاً فشيئاً تيقّنتُ أن العلاقاتِ قد تُكوّنُ مزيجاً رائعاً من الحرفين، وأننا فعلاً وبكاملِ وعينا وإرادتنا أو حتى بدونها ندخلُ في علاقاتٍ معقدةٍ بل ومن الممكن أن تفرضَ علينا الظروفُ أشخاصاً معينةً من الصعبِ بمكانٍ أن نتخلصَ من قربهم بسهولةٍ لاعتباراتٍ كثيرةٍ جداً سواءَ أكانت أسريةً أو اجتماعيةً أو غيرها.

خلاصةُ القولِ فإنّ الحياةَ قد فعلت فعلتها وكان درسها قاسياً كي تُعلّمنا أنّ هناك علاقاتٍ سامةً ومُمْرِضَةً تطفئُ روحنا، وتقتلُ كل جميلٍ داخلنا وتسلبُ منّا وميضَ حياتنا وطاقتنا إلى أن تسيطرُ علينا وتفقدنا إحساسنا ومشاعرنا وتصنع منا مسوخاً متحركةً على الأرض مثلَ أسطورةِ الموتى الأحياء أو "الزومبي".

على الجانبِ الآخر يوجدُ في حياتنا أشخاصٌ في صورةِ هديةٍ من الله سبحانه، تشعرُ معهم أنّ لهم مرتبةً فوقَ مرتبةِ البشر، لديهم طاقةٌ إيجابيةٌ لا يبخلون بها على المحيطين بهم، ينيرون حياتك ويُحيون معانٍ كثيرةً اندثرت من كيانك وروحك وإحساسك.

هذه الكائنات نادرة الوجود، لو حباك الله بأحدٍ منهم فتشبث به تشبثَ الغريقِ بطوقِ النجاةِ، حتى لو غامرت وكانت العلاقةُ على هيئةِ حرف (T)لأنّ فرصة حياتك وسعادتك بجوارهم أفضلُ جداً من علاقةٍ سامةٍ تعكر صفوك وتُنهي حياتك قبلَ الأوانِ بأوانٍ.

اللحظاتُ الفارقةُ

هناك لحظاتٌ فارقةٌ في عمرِ الأفرادِ والمجتمعاتِ الإنسانيةِ، لحظاتٌ فارقةٌ مثلَ الخيطِ الرفيع بين العتمةِ، والنّورِ حين ينسلخُ أحدهما من الآخرِ معلناً عصراًجديداً حاملاً ملامحه وسماته الفريدة.

وهنا تستبينُ اللحظاتُ الفارقةُ بين شخصٍ وآخر ومجتمعٍ ونظيره من المجتمعات.

وتبقى إرادةُ التغييرِ والقدرةِ على التحررِ والاختيارِ من أهمِ العلاماتِ الفارقةِ كما أنّ تلك العلاماتِ تحتاجُ الى مثابرةٍ وعزيمةٍ فولاذيةٍ لا تلينُ للحفاظِ على مكتسباتِ الاختيارِ، وفرضه على القوى المناوئةِ الرافضةِ للتغييرِ، أو تقبلِ تحررِ الآخرين لأنّ في تحررهم فقدانٌ لامتيازاتٍ وحقوقٍ مكتسبةٍ، سواءٌ لخبثِ نفوسهم وأنانيتهم أو تَعوّدِ الطرفِ الأولِ على البذلِ والعطاءِ.

لذا فمن اختار حريته فعليه أن يناضلَ من أجلها ويحميها حتى لا يسقطَ مجدداً في مستنقعِ العبوديةِ واستباحةِ الحقوقِ والخصوصياتِ.

إرادةُ الاختيارِ

ليس من الهَيّن أو اليسيرِ في كلِ يومٍ أن تجودَ علينا الدنيا بإنسانٍ قلبه نقيّ وروحه صافيةً، يخافُ علينا بصدقٍ ويرانا ذوي شأنٍ وقيمةٍ في حياته، حيث من الصعبِ بمكانٍ أن يتخلى عنّا أو يُفرّطُ فينا.

ليس من السهلِ أبداً أن نصادفَ مَنْ يتقبلنا كما نحن ونتقبله كما هو دون أن نضطرَ لعملياتِ التجميلِ المزيفةِ أو انتقاءِ أفضلِ الأقنعةِ التي تمكننا من الاختباءِ وراءها. ففي الوقت الذي تتعمق فيه علاقتنا وتبدأ مساحيقُ الزيفِ والخداعِ في التكشفِ والانهيارِ وتستحيلُ بصاحبها إلى مسخٍ مُروّعٍ، فهذه مقدمةٌ ومعطياتٌ خادعةٌ تستحيل في نهاياتها الحياةُ.

فكما أنّك تنبهرُ بحماسةِ البداياتِ، فإياك إياك أن ينسيك ذلك أنّ الوضوحَ والتقبلَ ومواجهة الاختلافاتِ من البدايةِ أفضلُ وسيلةٍ لضمانِ استمرارِ العلاقةِ وحفظها من التآكلِ والتعرضِ لزلازل الواقع، وقسوةِ ومرارةِ الحياة بواقعها القبيح وأزماتها، التي لا تعترفُ بعملةِ الكلامِ المعسولِ الذي اعتمد في بنيانه على أعمدةِ الوعودِ البراقةِ وحوائطَ شفافةٍ من تزييف الحقائق

وتأجيلِ حسمِ نقاطِ الاختلافِ والتي بدورها تصبحُ مثلَ كرةِ الثلج التي تتعملق وتتضخمُ شيئاً فشيئا إلى أن تتحولَ لكابوسٍ مريعٍ يحطّمُ أية علاقةٍ مهما كانت جميلةً في البداياتِ.

إرادةُ الاختيارِ ليست مجردَ اختيارٍ أوليّ ثم نتركُ العلاقة تستمرُ بدون مجهودٍ متواصلٍ من الطرفين للحفاظِ على مكتسباتهم من انفراط عقدهاِ في طريقِ رحلةِ العمرِ المحفوفةِ بالمخاطرِ والعقباتِ.

حبُ التملكِ

حبُ التملّكِ في أيةِ علاقةٍ بين زوجين تتشابه إلى حدٍ بعيدٍ بين الخيطِ الرفيع الفاصلِ بين الليلِ والنهارِ، إما نورٌ ونضجٌ يقودُ السفينة إلى برّ الأمان أو عتمةٌ وشتاءٌ طويلٌ ينتهي بعواصفَ قاتلةٍ تجعلُ قاعَ المحيطِ مقراً دائماً للعلاقةِ الزوجيةِ حيثُ تستحيلُ الحياةُ.

غريزةُ حبِّ التملكِ في البشرِ من الجبلاتِ التي فطرهم اللهُ عليها، لكن تبقى سلاحاً ذا حدين، إما جنةٌ ونعيماً أو عذاباً ولظى.

الرجلُ يحتاجُ أن يشعرَ أنّها له فقط وليس له شركاءُ فيها من غيره من الرجالِ.

يحتاجُ إلى أن يأسرَ قلبها ويُشعِرها بحبه لها وغيرته عليها وحفاظه عليها من أن يُهينها أحدٌ ما أو يتعرضُ لها بالضررِ النفسيِّ أو الإيذاءِ بصورهِ المختلفةِ، فإن لم تحبْ المرأةُ ذلك في زوجها فلا شكَ أن بها خللٌ ما وتحتاجُ إلى معالجةِ ذلك الخلل.

حبُّ التملكِ الطبيعيّ يمنحُ مساحاتِ الحريةِ ويبني جسورَ الثقةِ المتبادلةِ والإخلاصِ بين الطرفين، فإن زاد الأمرُ

عن حدهِ وتحول إلى حبٍّ التملكِ المرضيِّ استحالت الحياةُ إلى جحيمٍ لا يُطاق، وهذا الجحيمُ تبدو ملامحه في صورٍ مختلفةٍ من السلوكياتِ المرضيةِ غيرِ السويةِ مثلَ، عدمِ احترامِ الشريكِ، والوقاحةِ والاستهتارِ في التعاملِ معه واعتبارهِ من ممتلكاتهِ الشخصيةِ دونَ أدنى اعتبارٍ لخصوصياتِ الشريكِ الآخرِ أو أنّه إنسانٌ حرٌ يمتلكُ حرية التصرفِ والتعبيرِ.

في هذه العلاقاتِ المميتةِ أيضاً تكونُ غيرةُ الشريكِ مرضيةً ومفرطةً يسعى من خلالها إلى سجنِ شريكه في عالمه الخاصِ وعزله عن كلِ الدنيا بما فيهم الأقاربُ والأصدقاءُ.

هذا الشريكُ أيضاً يعاني من تقلبٍ شديدٍ في الحالةِ المزاجيةِ فهو في أوقاتٍ معينةٍ يكونُ أعنفَ ما يكونُ ويُهددُ ويُرعدُ ويُبرق كالثورِ الهائجِ، وقد يصلُ به الأمرُ إلى تخويفِ الطرفِ الثاني بل وربما تهديدهُ بالإيذاءِ والقتلِ بل لا يتورعُ عن ضربهِ وشتمه ثم يعودُ ليعتذرَ ويبكي ويتعهدَ بألّا يعودُ لما فعل ويتوسلَ شريكه كي يغفرَ له وأنّه لا يستطيعُ أن يعيشَ بدونه.

حبُ التملكِ المَرضيّ يُحوّلُ الحياةَ الزوجية الى قطعةٍ من الجحيمِ ويتحولُ فيها الطرفُ المضطهدُ شيئاً فشيئاً

من السواءِ الى العتمةِ والوجعِ وربمّا الاكتئاب وهو يرى أحلامه تموتُ أمامه، وتتحولُ حياته إلى ليلٍ طويلٍ وبردٍ قاسٍ لا أملَ أن يبزغَ من ورائه فجرُ الخلاصِ والنجاةِ.

السعادةُ قرارٌ وليست إمكانياتٍ

السعادةُ شعورٌ نسبيّ يختلفُ باختلافِ كلِ فردٍ، وقد ترتبطُ بعواملَ مختلفةٍ مثلَ قدراته وإمكاناته ودوافعه سواءَ كانت هذه العواملُ منفردةً أو مجتمعةً.

السعادةُ من منظورِ علمِ النفسِ نتيجة الشعورِ أو الوصولِ لدرجةِ رضا الفردِ عن حياته أو جودتها، في حين أنّ المنظورَ الفلسفيَّ يراها عبارةً عن فضائلَ الأخلاقِ، والنفسُ كالحكمةِ والشجاعةِ والعدالةِ ، أمّا في المنظورِ الدينيّ فالسعادةُ ترتبطُ بمدى الحرصِ على رضا اللِه والالتزامِ بطاعته والبعدِ عن عصيانه.

من خلالِ التأملِ في الكلماتِ السابقةِ واختلافِ المنظورِ لمعنى السعادةِ، فيمكنُ القولُ أنّها لا ترتبطُ بمالٍ أو منصبٍ أو سطوةٍ أو قوةٍ أو جمالٍ.

العواملُ السابقةُ تصنعُ شيئاً من السعادةِ ولكن تبقى سعادة ناقصة، فإذا كنتَ إنسانا قنوعاً راضياً عن نفسك وتمتلكُ نفساً طيبةً نقيةً قادرةً على العطاءِ ورسمِ السعادةِ والأملِ على جباهِ الآخرين، حتى وإن كنتَ لا تملكُ الكثيرَ من العواملِ السابقةِ، فقدت حزتَ جانباً عظيماً من سعادتك وراحةِ بالكِ.

السعادةُ ليست إمكاناتٍ أو عواملَ ماديةٍ بقدر ما هي قرارٌ، فالحياةُ لوحةٌ فنيةٌ نرسمها بواسطةِ عُلبةِ الألوان، ولك القرارُ والاختيارُ في انتقاءِ أقلامك التي تلونُ بها لوحتك، فإمّا أن تبدو جميلةً جذابةً تسرُّ الناظرين أو كئيبةً بطعمِ الموتِ وألمِ السخطِ والانكسارِ.

الحيادية في تعاملاتنا

(حبيبك يبلعُ لك الزلطَ وعدوك يتمنى لك الغلطَ)، مثلٌ شعبيٌّ مصريٌّ معروفٌ، وفيه إشارةٌ لانعكاسِ الحالةِ المزاجيةِ والعاطفيةِ على أحكامنا على الناس، وللأسف هذا الأمرُ له نتيجةٌ حتميةٌ إلى عدمِ الحياديةِ والجورِ في الأحكامِ.

يقول تعالي في كتابه العزيز: "يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ ۖ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا ۚ اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۖ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۚ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ" – (المائدة ٨).

كما جاء في الأثرِ المنسوبِ لعليّ رضي الله عنه: "أحبب حبيبك هوناً ما عسى أن يكونَ بغيضك يوماً ما وأبغض بغيضك هوناً ما عسى أن يكونَ حبيبك يوماً ما" كما جاء في سفر التثنية عند أهل الكتاب: "لاَ يَكُنْ لَكَ فِي كِيسِكَ أَوْزَانٌ مُخْتَلِفَةٌ كَبِيرَةٌ وَصَغِيرَةٌ" (تثنية٢٥: ١٣)

إشاراتٌ واضحةٌ أن نلتزمَ الحيادية في تعاملاتنا مع الآخرين، ودعوةٌ لنا جميعاً للحيادةِ والإنصافِ وألا نُغلّبَ العاطفة على أحكامنا كي لا نحيدَ عن الحقّ والإنصافِ، لأنّ من أسوأ ما يمكنُ أن تعاني منه النفسُ البشريةُ الازدواجية في التعامل، وتغيرَ موازينها حسبَ الأهواءِ والحالةِ المزاجيةِ المتقلبةِ.

الاهتمام

الاهتمامُ حقيقةٌ دامغةٌ لن نقفْ حيالها كثيراً لنثبتَ صحتها من عدمها، لكن من المستغربِ أنّ مَن يرددها شخصٌ تعوّدَ أن يكونَ محورَ اهتمامِ الطرفِ الثاني، تعوّدَ على الأخذِ دون انقطاعٍ، يرى أن اهتمامَ الشريكِ واجبٌ عليه وليس نابعاً من حبهِ له وخوفهِ عليه، وأنّ حرصَ الطرفِ الإيجابيُّ على تلبيةِ رغباتِ الطرفِ السلبيّ وإسعادهِ مرجعه إلى حبه له وليس من بابِ أنّه فرضٌ أو مُسلّمةٌ واجبٌ عليه تنفيذها كواجبٍ حتميٍّ وحقٍ أصيلٍ. في الوقتِ نفسه يظلُ الطرفُ الأنانيِّ منصباً تركيزه على السيطرةِ على شريكه طولَ الوقتِ حتى لو من خلالِ بثِّ الطاقةِ السلبيةِ وإقناعِ شريكهِ أنّه أقل منه وأنّه مقصرٌ في علاقته، وأنّ كل أمرٍ يقومُ بها الطرفُ المحبُ للطرفِ الآخرِ يبقى معيبا، بل وأقلَ مما يجبُ أن تكونَ عليه.

وبدلاً من أن يجعلَ تركيزه في اهتمامهِ بشريكهِ ليرفعَ من شأنهِ وينيرَ جنباتِ حياته تراه يصبُّ جُلَّ تركيزهِ في الحفاظِ عليه - من وجهةِ نظرهِ - حتى لو أنّه يُحوّلُ شريكه لحطامٍ وشخصيةٍ ملامحها متهدمةُ الأركان،

ملؤها العتمةُ والخرابُ، حتى لو كان سبيله الخداعَ والمكرَ بطرقٍ خبيثةٍ وملتويةٍ منها على سبيل المثال أنّه يعيشُ دورَ الضحيةِ سواء مِن خلال التمارضِ أو البكاءِ المستمرِ أو بثِّ روحِ النكدِ والحزنِ، بصفةٍ مستمرٍ يحبسُ شريكه في ركنٍ مظلمٍ وخانةِ التقصيرِ وأنّه مهما صنع له من تضحياتٍ يظل مت قام به ناقصاً ومعيباً يعتريه النقص والعوار والتشويه.

تلك العلاقاتُ آنفةُ الذكرِ سامةٌ جداً ونادراً ما يخرجُ منها أحدٌ سليماً.

وفي نهايةِ المطافِ، وشيئاً فشيئاً، ترى الطرفَ المحبَّ يفقدُ رونقه ويتحولُ إلى شخصيةٍ مرتبكةٍ تتشككُ في نفسها أنّها مهما قدمت من تنازلتٍ وتضحياتٍ هي السببُ في حزنٍ وألمٍ ووجعِ الطرف الأنانيِّ.

وجملةُ القولِ فإنّ العلاقاتِ الإنسانيةِ كالعلاقةِ بين النورِ والعتمةِ، إما أن تنيرَ عوالمك أو تدخلك عتمةٌ لا يعقبها فجرٌ منيرٌ.

العلاقاتُ الإنسانيةُ

العلاقاتُ الإنسانيةُ مثلها كما الليلُ والنّهارُ، إما أن تنيرك وتنعكسَ عليك بالطاقةِ الإيجابيةِ التي تملأُ حياتك أملاً ونوراً ويقيناً، أو أنّها تشتتُ شملك وتبثّ فيك الطاقة السلبية اللي تحطمُ كيانك وتشل قدراتك وتملأُ حياتك يأساً وشكاً وخوفاً وآلاماً وأوجاعاً.

من ينيرُ عتمتك ويتمسكُ بك وقتَ ضعفك وأنت تعاني ليلكَ الحالكَ إلى أن يتخطى بك نحو نورِ الفجرِ وبرِ اليقينِ ثِقْ أنّه رزقٌ من اللهِ يستوجبُ منك أن تتمسكَ به وتشكرُ الله أن جعله في حياتك.

أما من يُلقي بك في عتمةِ الحزن واليأسِ والانكسارِ ويتعمدُ أن يقللَ منك لأنّه يعلم أنّه أقلَ منك قيمةً ومنزلة، وبالتالي يحاولُ كسرك وقهرك ظناًمن نفسه المريضة أنّه بتلك الوسيلةِ الرخيصةِ يحافظُ عليك فهذا الكائنُ ينطبقُ عليه قولُ النبيِّ ﷺ "فرِّ من المجذومِ فرارك من الأسدِ"؛ لأنها علاقاتٌ سامةٌ ومميتةٌ، الصبرُ عليها خيانةٌ لنفسك وروحك، وبترها هو الحل الحتميّ والوحيد.

ما بين التمسكِ والانتزاعِ

"سبحان مَنْ وضعَ في قلوبنا محبةُ أناسٍ وانتزعَ منها محبةُ آخرين"..

عبارةٌ استوقفتني كثيراً، فكم من أناسٍ عشنا حياتنا نسترضيهم ونضحّى بالغالي والنفيس لإسعادهم ورؤيتهم في أفضلِ صورةٍ ممكنةٍ، نرضي منهم بالقليلِ ونبررُ لهم عوارَهم وخطاياهم ونستوعبُ أذاهم، عيوننا كانت لهم بحورُ محبةٍ، وقلوبنا تحتويهم وتضمهم وأيدينا تداوي جراحاتهم وتحميهم من بطشِ الدنيا ومكرِ الغادرين. وبدلاً من مقابلةِ المعروفِ بمعروفٍ والإحسانِ بمثله لم يتورعوا في تحطيمنا واستعبادنا للحفاظِ على مكتسباتهم التي تضمنُ لهم مزيداً مِن التملكِ وسترِ عوارهم وفسادِ طويتهم، لكن لكلِ منّا طاقةٌ وقدرةُ تحمّلٍ وصمودٍ، فنحن نعطي بغيرِ توقفٍ ونُقبلُ بغيرِ إدبارٍ ونحبُ بغيرِ حدودٍ لكن حين تُجرحُ كرامتنا نُديرُ وجوهنا بغيرِ رجعةٍ أو قبولٍ لقيودِ العبوديةِ والاستباحةِ من جديدٍ.

فقلوبنا جديرةٌ أن تكونَ لمن يصونها، وحياتنا أحقُ لمن ينيرها ويقدرها ويحتويها بحبٍ صادقٍ وعطاءٍ غيرِ مشروطٍ.

إلى مثل هؤلاء أنتم في أعيننا، وقلوبنا، ولا نرتضي لكم بديلاً.

نفسك غاليةٌ تستحقُ أن تحبها وتحافظَ عليها، وكرامتك خطٌ أحمرُ لا تقبلُ من أحدٍ مهما كان أن يتخطى حماك ويستبيحَ كرامتك.

لا تعبثْ مع الأسدِ

فزعَ الناسُ على صوتِ رجلٍ يصرخُ من هول الألم الرهيبِ، ومشهدُ الدّم المتدفق من منبتِ ذراعه المبتور.

سألوه عن السببِ؟ قال:

- كنتُ أحاولُ التأكدَ من قدرةِ الأسدِ على العض والإيلام، وهل هو حقاً شجاعٌ كما يشاعُ عنه أم أنّه يخفي جبنه خلفَ قناعِ الشجاعةِ المستعار!!

قالوا: ما كان للأسدِ أن يفعلَ ذلك أبداً!

إلى كل من يدسُّ أنفه في حياة الأسد، احرص على حياتك، فالأسدُ إذا غضبَ لا يكتفي بالذراع.

وانظر لقدمك أين تضعها

واجعل خطوتك عزيزةً ولا تسلك طريقاً لأحدٍ لا يستحقه.

لا تهدرْ وقتك وطاقتك على من لا يستحق، لا تضيع ساعات عمرك وحياتك في المكانِ الخطأِ.

لا تحرق أعصابك على أناسٍ أنتَ في أعينهم منفعةٌ وأرضٌ مستباحةٌ، لأنهم يوم ما يرونك بدونِ فائدةٍ، فاعلم أنها النهايةُ كتلك النهاية الكارثية التي يكافأ بها الحصان الذي قضى سنوات عمره في سلك الشرطة وخدمتها، وحين لم تعد له فائدة من وجهة نظرهم أو لم يعد بالكفاءة التي تشبع احتياجاتهم، يتم مكافأته بإطلاق رصاصة الغدر عليه.

وعليه.. فإياك أن تتحرقَ مثلَ الشمعةِ من أجلِ *فئام من البشرِ لا يرونك إلا مجردَ مصباحٍ ينيرُ طريقهم فقط دون أحدٍ سواهم، وحينما تنطفئ بعدما أفنيت حياتك من أجلهم، سوف يلقون بك في أقربِ مكبٍّ للنفاياتِ بعدما استهلكوا طاقتك وعمرك وحياتك .

---

* فئام: الجمع من الناس والجمع فؤم

كن عزيز النفس، وأحسنْ الاختيارَ، وإن لم تجد مَن يقدرك وينزلك منزلتك التي تستحق، فاختر نفسك وعش من أجلها، فلن يعرف قدرها أحدٌ مثلك.

مرارة الخيانة

عندما يَخُونُونَك فكأنّهم بترُوا ذراعيْك، نعم تستطيع مسامحتهم، لكنّك لن تستطيع عناقهم. (تولستوي).

هناك أشخاصٌ أفسدوا علينا حياتنا وأرهقونا حدَ الخراب ونالوا منّا حدَ تمنىّ الموتِ والرحيلِ عن الدنيا بأسرها، حتى صارت أعظمُ أمنياتنا ألا نراهم في حياتنا.

مجردُ اختفائهم علامةُ أننا بخيرٍ، حتى لو كان ثمنُ اختفائهم سرقةَ ثيابنا ونعالِ العودةِ.

فأن تعودُ لنفسك، ولو حافياً، خيرٌ ألفَ ألفَ مرةٍ من أن تهدرَ كرامتك وعمرك وطاقتك مع صنفٍ من الغدرِ والخستةِ تفتخرُ النعالُ عندما تراهم أنها أعلى منهم شأناً وأرفعَ منهم قامةً ومكانةً.

وما أبلغَ وصفِ المتنبيّ لهم:

قومٌ إذا مسّ النعالَ وجوهُهم

شكت النعالُ بأيِّ ذنبٍ تُصفعُ

قيل في الخيبات

عند معاشرتك لبعض الناس ستدركُ وقتها لماذا خلقَ اللهُ جهنمَ - دوستويفسكي

هو لم يقل عند معرفتك لبعض الناس، بل قال: عندك معاشرتك!

هذه الفئة من بني البشر لديها من خبثِ الطويةِ وفساد النيةِ ما يسحر أعيننا لدرجةِ أننا نتعايشَ معهم ونعاملهم لسنواتٍ طويلةٍ وسنواتٍ دونما أن نسبرَ غورَ وعمقَ تلك النفوس المعتمةِ .

لديهم من المكر والخبث ما يؤهلهم أن يتلاعبوا بنا وبحياتنا، فيدخلوها وقتما شاءوا، دخلوا حياتنا وكذلك يخرجون بعدما أفسدوا كل مظاهرِ الجمالِ فيها ومعالمَ الطاقةِ والحياةِ، ومع ذلك نظلُ عاجزين عن فهمم واستيعاب خباياهم فضلاً عن تفسيرها، في حين أننا كنا لهم كتاباً مفتوحاً يُقرأ بيسرٍ من عنوانه.

مجردُ خروج هذه الكائناتِ الشيطانيةِ من حياتنا نجاةٌ، بل إنّ مجردَ بعدنا عنهم كفيلٌ أن يحققَ لنا السعادةُ والفرحةُ وراحةُ البال.

في حين أنّ مجردَ ذكرهم كفيلٌ بتعكيرِ حالتك المزاجية وإفسادِ بقيةِ يومك بل ويُحيلُ أحلامك مخاوفَ وأضغاثَ أحلامٍ.

هذه النماذج المنتسبةُ بهتاناً وزوراً لعوالمَ الإنسانيةِ بمثابةِ دروسٍ عظيمةٍ في حياتنا رغمَ أنّ الثمنَ باهظٌ حد الجنون، يسحبُ بإسرافٍ من أعمارنا وصحتنا وراحةِ البال.

ضريبةُ النوايا الطيبة

ثم تكتشفُ أنّ أكثرَ أخطائك في الحياةِ كانت بسببِ العطفِ لا القسوةِ.

الطبيعةُ الإنسانيةُ غايةٌ في الغرابةِ والغموضِ والمتناقضاتِ، وهذا من أصعبِ ما يواجه المنهجَ التجريبيّ في مراقبةِ الطباعِ البشريةِ وتفسيرها تفسيراً علمياً دقيقاً يخضعُ للصدقِ والثباتِ، فمن السهل أن يُزيفَ الشخصَ - الذي يتمُ اختباره - إجاباته، ويضللَ الفاحصَ ويتلاعبَ به الى أقصى حدٍ ممكنٍ .

تعرضنا في حياتنا لما يتعرضُ له الباحثون نتيجةَ عدمِ فهمنا أو وقوعنا فريسةً لأمراضهم النفسيةِ وما يعتريهم من نقصٍ وعيوبٍ يسقطونها على الآخرين.

لم أتوقع أبداً أن تكونَ الطيبةُ وحسنُ النوايا سبباً لكلِ ما عانيته من جراحٍ وأوجاعٍ وآلامٍ

لم أتخيلْ أن تكونَ العاطفةُ سبيلاً للاستغلالِ والتلاعب بمشاعري وحياتي.

لكن يبقى الدرسُ الأهمُ بعد كلِ تلك المعاناةِ، أنّ وضعَ الشيءِ في غيرِ محله هو سببُ وقوعنا في تلك الحفرِ والسراديبِ المعتمةِ.

والدرسُ الأهمُّ من كلِ ذلك أنّ مَنْ لا يتعلمْ من أخطاءِ الماضي فعليه أن يتحملَ مزيداً من المعانةِ والاستغلالِ والقهرِ.

سحقاً لعنصريتكم

تعلمتُ أنّ الإنسانَ قاسٍ متوحشٌ، وقد قبلتُ هذه الحقيقة وتأقلمتُ معها بمرورِ الزمن. تعلّمتُ أنّ التفرقة العنصرية والاضطهادَ العرقيَّ حقيقتان.

لو صار العالمُ ذا دينٍ واحدٍ وجنسيةٍ واحدةٍ ولونٍ بشرةٍ واحدةٍ، فعلى الأرجح سيبدأ طوال القامةِ في قتلِ قصارها، سيبدأ زرقُ العينين في اضطهادِ سودِ العينين، هذه هي الحقيقةُ "أحمد خالد توفيق"

نعيشُ في مجتمعٍ ذي مثاليةٍ مشوهةٍ، يوهم أفراده بأحقيتهم في إصدارِ الأحكامِ وكيلِ الاتهاماتِ، وعزلِ ونبذِ المختلفين، مجتمعٌ يتنمرُ من نسيجِ نفسه، تنمرٌ وتصنيفٌ على حسبِ البشرةِ والنشأةِ والقبيلةِ والملةِ والمذهبِ وشهادةِ الميلادِ، وكأنّه ينصب نفسه إلهاً يفرزُ البشرَ كما يشاءُ ويحددُ ولاءهم ووطنيتهم، ولا يحقُ لك أن تصادرَ عليه في أفعاله وأقواله، فهو لا يُسألُ وهم يسألون.

علمتني الحياةُ أنّ الإنسانَ في طهره أنقى من الملائكةِ وفي شره أخبثُ من الشياطين.

علمتني الحياةُ أنّ بني البشرِ - خاصة قومنا من بني العروبةِ - لا ينتهون عن إدخال أنوفهم في شؤون غيرهم فلا شيءَ يرضيهم، ولا حالٌ ينالُ إعجابهم، فهذا في مراياهم الضبابيةِ من الجنوبِ يتسمُ بالغباءِ والبلاهةِ، وذاك أسودُ البشرةِ ويستحقُ أن نلعنَ أجدادَ أجدادهِ الذين تسببوا في هذه الجريمةِ الشنعاءِ، هذا مؤمنٌ وذاك كافرٌ، بل ويضربُ الاختلافُ والتكفيرُ أبناءَ الملةِ الواحدةِ.

ألمحُ عن بعدٍ فقيراً يستترُ من نظراتِ عليةِ القومِ الذين يقيسون الآخرين بمدى ما لديهم من أموالٍ وعقاراتٍ وبهائمَ لا تختلفُ كثيراً عن مالكيها سيان، فالعقليةُ واحدةٌ.

علمتني الحياةُ أن أعتزَ بنفسي ولا أُلقِ بالاً لهؤلاء الحمقى الذين أغلب تفكيرهم كتفكيرِ الأنعامِ لا يتجاوز شهوةَ المأكلِ والمشربِ وتسافدِ الحمير.

حريتك لا يعادلها شيءٌ

"يسرقون رغيفك، ثم يعطونك منه كِسرةً ثم يأمرونك أن تشكرهم على كرمهم، يا لوقاحتهم!!" - (غسان كنفاني)

ليت السرقاتِ تتوقفُ عند رغيفك، هناك من يسرقُ حياتك، يسرقُ طاقتك، يقللُ منك، يعكسُ عليك نقصه وأمراضه النفسية، يُصدّرُ إليك الشعورَ بالضعفِ وقلةِ الحيلةِ، لو أشعلت أصابعكَ العشرةَ شموعاً مضيئةً لاتهمك بالتقصيرِ والعجزِ حتى ينتهى بك المطافُ أسيراً للتبريرِ والاعتذارِ، سجيناً في دائرته وقيودِ عبوديته وأصفادها.

يجيدون الصوتَ العاليَ لسحق ثباتكِ وثقتكِ بنفسكِ، يتلذذون وهم يعالجون ضعفهم من قوتك وأيديهم المرتعشة من ثباتك وقامتك.

حين تقع في مستنقع هؤلاءِ فلا تترددَ في الخروج من نفقهم المظلمِ، فكرامتك لا تستطيع العيشَ في أسرِ هؤلاء، وحريتك لا يعادلها شيءٌ.

يكفرن العشير

ثم تراها وقد استيقظت على غيرِ عادتها مبكراً - بعدما كانت تستيقظُ بعدَ الظهيرةِ - تجوسُ خلالَ ردهاتِ محاكمِ الأسرةِ منكسرةً مهيضة الجناح تُخفي خلفَ قناعها المزيفِ جرمها وبشاعتها، تتدثرُ دثارَ المذلةِ والمهانةِ والاضطهادِ أمام قاضي القضاةِ المبجلِ وعيناها تكادُ لا تغادرُ الأرضَ إمعاناً في تسولِ عطفه ضدَ إنسانِ الغابِ طويلِ النابِ.

وماذا عن صوتها؟ والذي كان يُوقظُ قاطني المبنى السكنيّ والمباني المجاورةِ والشوارعَ الخلفيةِ، ولا تنس مراعاةَ فروقِ التوقيتِ العصريةِ في زمنِ الفُجرِ النسويّ، فهو صوتٌ خافتٌ يكادُ من فرطِ العذوبةِ أن يُفجّرَ فحولةَ الحاضرين.

وماذا عن ابتسامتها؟!

ابتسامةٌ ماكرةٌ عندما تتحدثُ إلى أمينِ السرِ قدّس اللّه روحه أو حاجبَ المحكمةِ - حجب اللهُ عنها نهرَ الكوثرِ وحرمها جنته كما حرمت الأبَّ من أبنائه- ، هي تلك الأنثى مفرطةُ الأنوثةِ مع أي موظفِ بالمحكمةِ أو حين تهمسُ في آذانِ أمناءِ الشرطةِ الرحماءِ في أقسامِ

الشرطةِ، حتى تكادُ أنت من فرطِ الدلالِ والجمالِ تظنها ملاكاً من السماءِ يضيءُ ولو لم يمسسه نورٌ.

ستجد توافقاً عجيباً ومودةً منقطعة النظيرِ بينها وبين محاميها حاميَ الديارِ مفارقَ الجنةِ وقودَ النارِ وكأنّه سينتقمُ منك لشرفِ عائلتها المكلومةِ وانتصاراً لمذاهبها المسمومةِ.

هل تستحقُ هذه الحيةُ الرقطاءُ وأنثى العنكبوتِ السوداءَ أن تنظرَ لها ولو شزراً، تلك التي كفرت عشيرها علواً وبطراً؟!

فإذا أردتَ أن تزدادَ يقيناً من حديثِ نبينا ﷺ حين اطّلعَ إلى النار فوجد أكثرَ أهلها النساءَ، فما عليك إلا أن تتجولَ جولةً خاطفةً في ردهاتِ وقاعاتِ محاكمِ الأسرةِ وحينها وأنت تسارعُ الخطى هروباً من مكانٍ تتساقطُ عليه لعناتُ السماءِ، ستردد في نفسك:

هنا فقط علمت معنى "يكفرن العشير".

أغلق النافذة

أغلق النافذةَ التي تؤذيك مهما كان المنظرُ جميلاً، وفي المعنى المعاكس، دع نسيمَ الحريةِ ودفءِ شمسها الصادق يعمُّ أركانَ بيتك ويطردُ عتمة السنين وظلماتِ الليالي الطويلةِ التي أوهمتك ألاّ ثمّة فجر قريب.

ارتفع عن أرضٍ تُثبّتُ أقدامك في وحلها، وارتقِ نحو فضاءٍ لا متناهٍ يليقُ بك، أو كما قال الشابيّ:

وَمَنْ يتهيب صُعُودَ الجِبَالِ

يَعِشْ أبَدَ الدَهرِ بَيْنَ الحُفَـرْ.

رابع المستحيلات

من رابع المستحيلاتِ أن أتمنى أنَ يعودَ بي الزمانُ إلى ما مر واندثر، ولن أندمَ أبدًا على ما قدمتُ سابقاً من عطاءاتٍ للآخرين حتى وإن نالوا منّي بخبثِ طويتهم وسوءِ نواياهم ولم يُقدّروا تلك العطاءاتِ، بل وأساءوا في حقي إساءاتٍ لا تُغتفر؛ يكفيني أنّي لم أغدر أو أخون أو أنتسب لقوافل المتلونين.

يكفيني دروسٌ وعبرٌ تعلمتها من الماضي ودفعت ثمنها كاملاً من أعصابي وطاقتي وعمري.

سعيدٌ جداً بما أنا عليه الآن وبكلِ تجربةٍ تركت في حياتي ندوبها وأوجاعها لكنها علمتني كيف أضعُ كلَ أحدٍ في مكانته التي يستحقها دونَ زيادةٍ او نقصانٍ.

"قولوا للناس حُسنا"، تنبعُ مني صافيةً نقيةً لكلِ بني البشرِ التي تجمعني بهم الإنسانيةُ، أما المشاعرُ وغرفاتُ القلبِ فهي كالحقوقِ لا تُعطى إلا لمن يستحقها، وأما غيرهم "ولات حين مناص".

عفواً لقد اخذتكم الرحلةَ الخاطئةَ

أدركتُ متأخراً لماذا بعضُ العلاقاتِ المعقدةِ تشبه الميسرَ؟ والدخولُ فيها حرامٌ شرعاً ودليلُ سفاهةٍ ومجونٍ.

لأنّ تعريفَ المسير: هو كلُ خَسارةٍ مؤكدةٍ مقابلَ مكسبٍ محتملٍ.

لو قمنا بعملِ إسقاطٍ على كثيرٍ من علاقتنا بهذا المفهومِ لوجدنا أننا رضينا أن نخسرَ الكثيرَ والكثيرَ مقابلَ احتمالٍ واحدٍ لا يرتقى لدرجةِ اليقينِ بأية صورةٍ من الصورِ، وهو أن الطرف الثاني قد يتغيرُ، وللأسف كانت النتيجةُ خسارةً فادحةً على المستوياتِ كافةِ، النفسيةِ والجسديةِ والاجتماعيةِ والاقتصاديةِ.

لأنّه لو كان القصدُ من تحريمِ الميسرِ عدمَ إضاعةِ المال، فمن بابٍ أولى تحريمُ الميسرِ في العلاقاتِ الإنسانيةِ لأن خسائرها كارثيةٌ وأعظمُ من خسارةِ أيةِ أموالٍ.

وبناءً عليه فحفظُ النفسِ شرعاً أولى من حفظِ المالِ.

وللأسف لم نفقْ مِن سُكرنا على تلك الفواجع إلا متأخراً، لكن من فضل ربنا أنّها ليست بدرجةِ "متأخرٌ جداً ولا جداً جداً"، والحمد لله كثيراً كثيرا أن هدانا اللّه للوحةِ التحذيرِ، "عفواً لقد اتخذتكم الرحلة الخاطئة"، قبل أن تنتهي بنا رحلتنا حيثُ لا عودةَ ولات حين مناصٍ.

لعلك رأيته يخفضُ ويرفعُ

لمن ينخدعون بالمظاهرِ البراقةِ ويحصرون التدينَ في امرأةٍ محجبةٍ ظاهرها المحافظةُ على الصلاةِ والصيامِ وقراءةِ القرآن.

يمكنكم من خلالِ زيارةٍ قصيرةٍ إلى محاكمَ الأسرةِ أن تغيروا واجهة آرائكم وترون عينَ اليقينِ أنّ الدينَ معاملةٌ وأخلاقٌ ومراقبةُ اللهِ في الخلواتِ.

رُوي أن رجلا أثنى على رجلٍ عند عمر رضي الله عنه فقال: صحبته في سفر؟ فقال: لا، قال: فأتمنته على شيءٍ؟ قال: لا، قال: ويحك! لعلك رأيته يخفضُ ويرفعُ في المسجدِ.

مظاهر التدين - وإن كانت من علاماته - فهي لا تعنيه على وجهِ الفعلِ والوجوبِ.

وفرقٌ شاسعٌ بين ذاتِ الدين التي تحدثَ عنها النبيُ ﷺ وبين المتدثرةِ التي تلوثت فطرتها بفعلِ النسويةِ الفاجرةِ، فصارت تؤمنُ ببعضِ الكتابِ وتكفرُ ببعضٍ .

خدعوكِ فقالوا

خدعوكِ فقالوا: سيعودُ إليك ذليلاً كسيراً يتمسحُ عتباتِ دارك طالباً العفوَ والسماحَ.

والوصفةُ السحريةُ لتحقيق مرادك هو الزجُّ به في أروقةِ محاكمِ الأسرةِ وفضّ المنازعاتِ.

خدعوكِ مرةً أخرى حينما سرتِ خلفهم كأغبى شاةٍ في قطيع الأنعامِ وهدمتِ بيتك بيديك ونلتِ لقبَ مطلقة المحاكمِ بكل جدارةٍ واستحقاقٍ ، ومع ذلك لم يعد إليك، فأعادوا صفعك على قفاك مجدداً وقالوا: سيطرقُ بابك منَ هو خيرٌ منه، وطال انتظارك وسيطول، ولما يحفل بك أحدٌ ولو أنصافُ الرجال.

خدعوكِ مجدداً وقالوا: أشرقت شمسُ شبابك مجدداً وعُدتِ أكثرَ نضارةً من عذراءَ الربيع وتناسوا قولَ النبيُّ ﷺ: "ليس منَّا من خبب امرأةً على زوجها".

خدعوكِ أيتها المسكينةُ حتى هدمتِ بيتك وضاع منك السندُ والملاذُ والأمان.

خدعوكِ حينما ألّبوكِ على زوجك، ووقفتِ حاجزاً ملعوناً بينه وبين أبنائه، وفرّقتِ بين المرءِ وبنيه

وقطّعتِ الأرحامَ، أما هم - أيتها الناشزُ - فقد اتخذوك عبرةً وحافظوا على صروحهم قائمةً، وظلّلوا على أبنائهم بسلام، بينما أنتِ دارُك خاويةٌ على عروشها بظلمك، وبئرُك معطّلة وقصرُك مشيدٌ.

خدعوكِ حين كشفتِ سترَ بيتك وسمحتِ لسفلةِ القومِ ورعاعهم يَلُوكون سيرتك ويجعلونك مادةَ حديثٍ للسخريةِ والتندرِ والنكاتِ.

خدعوكِ حينما شجّعوك على هدمِ جدرانِ بيتك، وحينما فرغوا من الهدمِ اختبؤوا خلفَ جدرانهم وانشغلوا بحياتهم، بل وصارت كلُ واحدةٍ ممّن خببّت عليكِ تفرُّ منكِ فرارَ الهاربِ من الأسدِ خوفاً على بيتها من غرابِ البينِ وبومةٌ تنعقُ في أيامٍ ولياليٍ سودٍ طوالٍ نحسات.
خدعوك وقالوا: ويا ليتهم ما قالوا ولات حينَ مندمِ.

أو أشدَ قسوةً

لعل من أكبرِ الأخطاءِ التي وقعنا فيها عبرَ محطاتِ عمرنا حين توسمنا في قلوبٍ كالحجارةِ بل هي أشدُ قساوةً أن يحنوا علينا ويكونوا لنا ملاذاً وسنداً وطمأنينةً وأماناً.

كيف تغافلنا عن علاماتٍ واضحاتٍ تصرخُ صراخاتٍ مدويةً محذرةً من الوقوع في براثنَ كائناتٍ فاقدي أبسطَ معاني الرحمةِ والمودةِ والإنسانيةِ؟

كيف تناسينا أنّ الرحمة والرقة سجيةٌ وفطرةً تصاحبُ المرءَ منذُ قدومه للدنيا، فلا هي مكتسبةٌ ولا قابلةٌ للإيجادِ من العدمِ والفناءِ؟

أصحابُ القلوبِ الرحيمةِ يعيشون بتلك الصفاتِ مهما تكالبت عليهم مصاعبُ الدنيا ومتاعبها، وأصحابُ القلوبِ القاسيةِ لا أملَ فيهم ولا ارتواء.

أخطأنا حينما أرهقنا أنفسنا في الطرقاتِ الخاطئةِ وأضعنا من طاقاتنا ومشاعرنا على مَن لا يستحقون.
يقول ربنا في أمثال هؤلاء:

"ثُمَّ قَسَتْ قُلُوبُكُم مِّنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فهي كالحجارة أَوْ أَشَدُّ قَسْوَةً ۚ وَإِنَّ مِنَ الحجارة لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ الأنهار وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ الماءُ ۚ وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ أللهِ ۗ وَمَا أللهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ"

عفواً قد نفد رصيدكم

عفواً حينما هَوت بك دركاتُ المعاملةِ من قمةِ الرقيّ والتقديرِ والمبالغةِ في الحفاوةِ إلى سفح التجاهلِ واللامبالاةِ.

عفواً حينما تم طردك خارجَ دائرتي واهتماماتي بعدما كنتَ مستقراً في حنايا قلبي واهتمامي وتفكيري.

عفوا لمن بِحُبّنا جَمّلناه وبعطائنا غمرناه وأخذنا من مشاعرنا ووقتنا وجهدنا وأعطيناه وبين الخلائق رفعناه وأكرمناه فكان الجزاءُ من غيرِ جنسِ عملنا، بل وبكلِ خسةٍ تعمّدَ تشويه صورنا وجعلنا أسرى تنفيذِ رغباته وإشباعها.

عفواً فأنتم لا تستحقون حتى كلمة (عفواً)، فقد أثبتت لنا الأيامُ ولياليها الطوال أننا أكثرَ بكثيرٍ مما تستحقون، ولسوء حظنا أوقعنا حظنا العاثرُ في أسرابِ طيورٍ لا تشبهنا تعلقت بأرجلنا حتى كدنا نفقد القدرةَ على معاودةِ الطيرانِ والتحليق .

ورغمَ كلِ السوءِ الذي قابلناه من أمثالكم، فلا تخلو التجربةُ من فوائدَ نصنعُ منها قواربَ نجاةٍ من بحوركم الآسنة وعتمتكم المنتنةِ .

فلا ضيرَ أن ضاقت دائرةُ معارفنا أشدَ الضيقِ حتى وإن انتهى بنا المطافُ أن نصاحبَ أنفسنا وبها نكتفي ونسعدُ. كما جاء في الحديثِ: (أمسِكْ عليكَ لسانَكَ، وليسعْكَ بيتُك، وابكِ على خطيئتِكَ)

لكل من مرّ بنا ومررّ علينا حياتنا: تعِستَ وانتكَست وإذا شيكت فلا انتقشت ولا طبت ولا طابت لك الأيام، فما عاد لك فينا أملٌ يرتجى ولا رصيدٌ يُنتظَر.

العتباتُ المقدسةُ

وماذا بعد؟

ستجدُ نفسَك في نهايةِ الأمرِ تختارُ سلامَك الداخليّ وتُؤثِرُ راحتَك النفسية على كلِ شيءٍ، ستجدُ نفسَك بعد مارثونَ طويلٍ ومرهقٍ من التوازناتِ غيرِ العادلةِ، والتعايشِ مع أوضاعٍ لا تليقُ بك، والتأقلمِ مع عتمةٍ لا تليقُ بقمرك المنيرِ، ستجدك في النهايةِ لم تعد تكترثُ لما كان سبباً في معاناتك وانطفاءِ نجمك الساطع.

لن تلهثَ مجدداً وراءَ مَن لم يضعوك في مكانتك التي بك تليقُ، ولن تُضيّعَ وقتك وجهدك في انتزاعِ شهادةِ حسنِ سيرٍ وسلوكٍ من كائناتٍ لا تجيدُ سوى بثِّ الطاقةِ السلبيةِ ومهاراتِ بخسِ النّاسِ أشيائهم.

ستكتشفُ أنّك امتلأت حتى حشاشةِ قلبكِ ومساراتِ عقلك حكمةً وقدرةً بليغةً في الحكمِ على الآخرين وقراءةَ مقاصدهم دون معاناةٍ مع تعددِ أقنعتهم وزيفِ الكلمات.

ستدركُ وقتها بكلِ أريحيةِ مَن يُحبّك لذاتكِ ومَن يتلون في ادعاءِ حُبّك لغرضٍ في نفسه أو منفعةٍ ينالها منك.

حين تصلُ لتلك العتباتِ المقدسةِ، فاعلم أنك على الطريقِ الصحيح .

مَنْ أمنَ العقوبةَ أساءَ الأدبَ

"مَن أمن العقوبة أساء الأدبَ"، "المالُ السايب يُعلّم السرقة".

المثلانِ السابقانِ اذا أنزلتهما أرضَ الواقعِ على شخصٍ تربىّ (مع الأسفِ) على الاحترامِ والتقديرِ وعدمِ تعمدِ إيذاءِ أيّ كائنٍ مهما تدنّت رتبته ونوعه، ستعلمُ مدى المعاناةِ التي يعيشها هذا الشخصُ والذي يرى اللئامُ طيبته ضعفاً وتربيته خللاً، بل والأعجبُ من ذلك ثقتهم اللامحدودةُ في أنّه لا يردُ إساءتهم بمثلها ولا يتحمّلُ على نفسه أن يوجعَ غيره أو يسببَ له جراحاً وآلامًا رغمَ ما يعانيه منهم ويكتوي.

فسحقاً لهؤلاءِ السفلةِ أبناءَ السفلةِ، وسحقاً لهذا الطيبِ (برتبةِ عبيطٍ)، الذي استقل الرحلة الخاطئة في الموعدِ الخطأِ ومع ذلك استمر في رحلته الحمقاءَ، وسحقاً لي أنا إن تعاطفت مع أحدِ الطرفين.

الفهرس

العنوان	ص	العنوان	ص
إرادة لا	٥	حذاء أبي القاسم	٦٤
مجاملةُ الأفاعي جريمةٌ	٧	صبح علينا	٦٨
مطلقة المحاكم	٩	لِئجِر فِسْكِك	٧١
التأقلمُ بدايةُ التنازلات	١٢	ومن الحب ما كفر	٧٤
الطاقةُ المهدرةُ	١٥	قلمات الظل والقيم المزيفة	٧٧
الرهان الخاسر	١٨	يوميات عاطف	٨١
كيف تجرؤ	٢١	حصن نابليون	٨٥
ما بين دائرةِ الأسر وسفينِ النجاةِ	٢٥	والأم مدرسة	٩٢
هل العتابُ سلوكٌ خاطئٌ	٢٨	امرأة بألف	٩٧
متلازمة الأبواب المُواربة	٣١	عندما يرعى الغنمَ ذئبُ	١٠٣
كن نفسك	٣٣	طبيبٌ بمرتبةِ إنسانٍ.	١١٠
عفوا أنا لا أعوض	٣٦	راقصةٌ وترقص	١١٥
الرسم بالكلمات	٣٩	الأقنعة البشرية	١١٧
نفسك نفسك فلا تبعها	٤١	علاقة Tو H	١١٩
لا تحدثني عن الحبِ علملني به	٤٦	اللحظات الفارقة	١٢٢
فن استخدام علاماتِ الترقيم	٤٨	إرادة الاختيار	١٢٣
الابتزاز النفسي	٥٠	حب التملك	١٢٥
آدم وحواء	٥٢	السعادة قرار	١٢٨
في فن بناء العلاقات	٥٥	الحيادية في تعاملاتنا	١٣٠
يا غدار	٥٧	الاهتمام	١٣١
رقعةُ الشطرنج	٦٠	العلاقات الإنسانية	١٣٣

ما بين التمسكِ والانتزاعِ	١٣٤	رابع المستحيلات	١٥٠
لا تعبث مع الأسدِ	١٣٦	اتخذتكم الرحلة الخاطئة	١٥١
وانظر لقدمك أين تضعها	١٣٧	لعلك رأيته يخفضُ ويرفعُ	١٥٣
مرارة الخيانة	١٣٩	خدعوكِ فقالوا	١٥٤
قيل في الخيبات	١٤٠	أو أشدَ قسوةً	١٥٦
ضريبة النوايا الحسنة	١٤٢	عفواً قد نفد رصيدكم	١٥٨
سحقاً لعنصريتكم	١٤٤	العتباتُ المقدسةُ	١٦٠
حريتك لا يعادلها شيءٌ	١٤٦	مَن أمن العقوبة أساء الأدبَ	١٦١
يكفرن العشير	١٤٧	الفهرس	١٦٢
أغلق النافذة	١٤٩		